

الألف كتاب

١٧٠

يوميات رحلة فاسكو دا جاما

وتقرير رحلة دوز سانتوس

ترجمة ودراسة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



يوميات

رحلة ڤاسكو داچاما

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

يوميات
رحلة ڤاسكو داجاما

وتقرير
رحلة دوز سانتوس

ترجمة ودراسة:

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

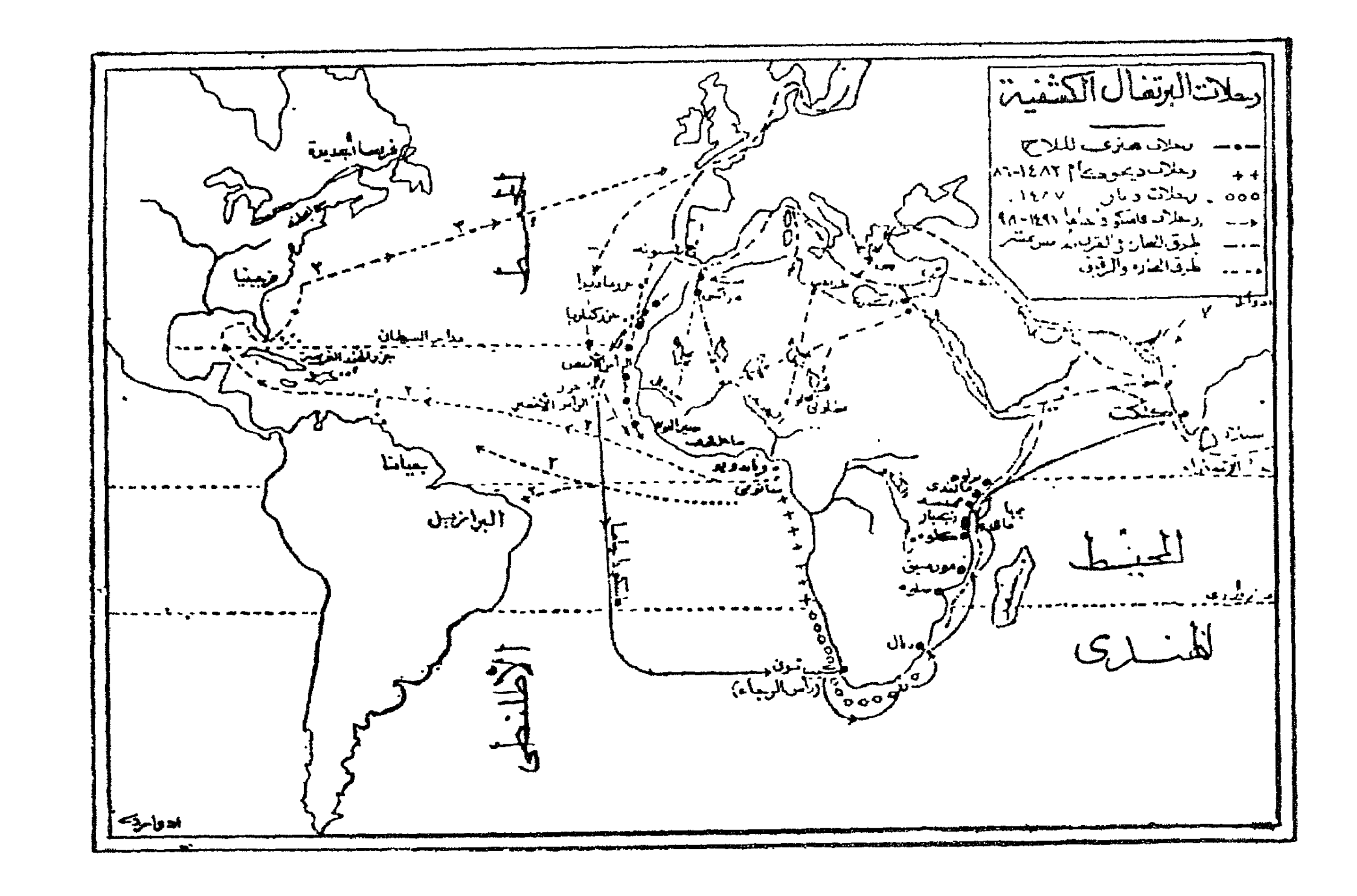
١٩٩٥

هذه هى الترجمة الكاملة لنص :

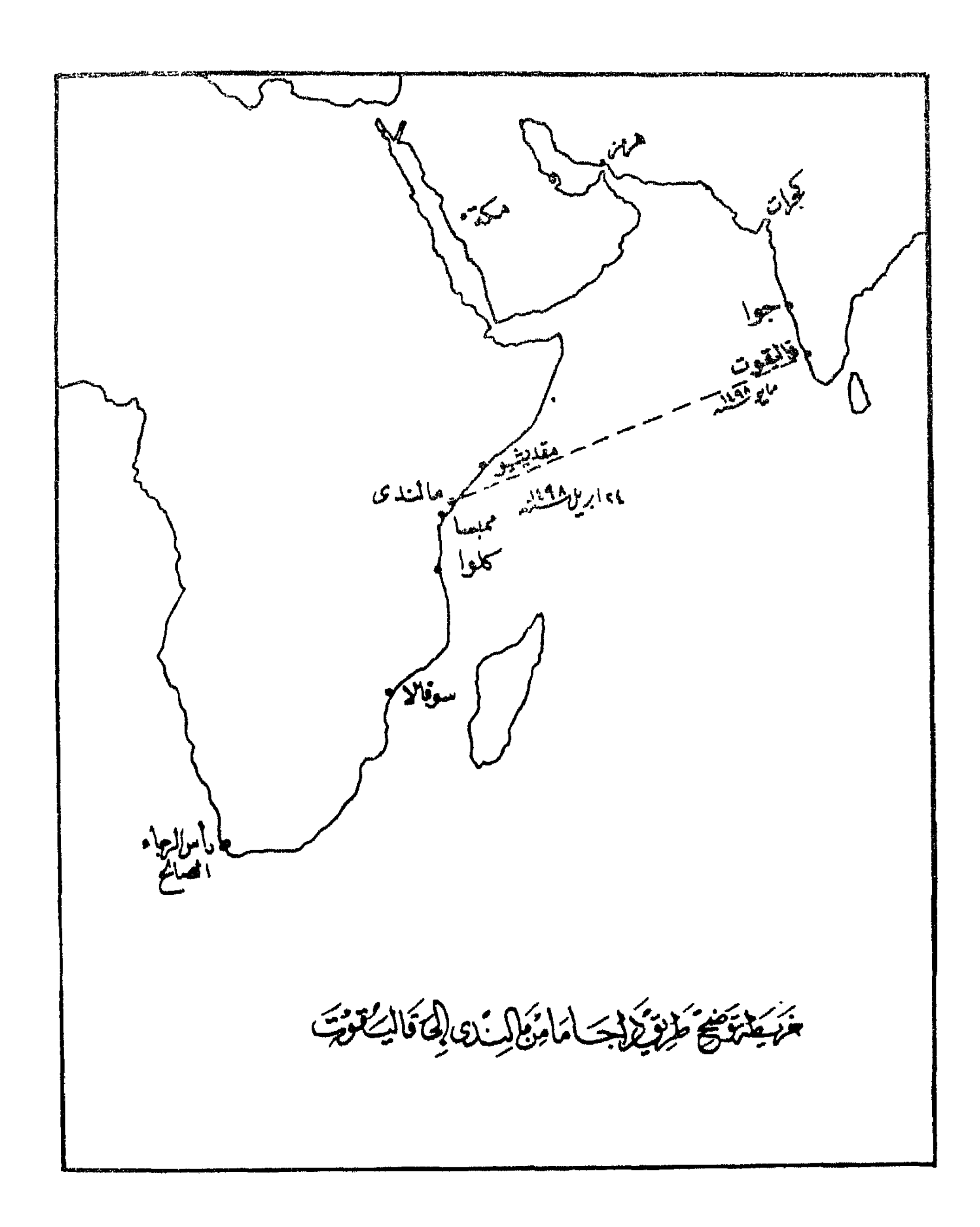
Diary of Vasco da Gama's Voyage to India (hanslated from the Diario da viagem de Vasco da Gama).

فهـــرس





رحلات البرتغال الكشفية
رحلات هنرى الملاح
رحلات ديجو كام ١٤٨٢-٨٦
رحلات دياز ١٤٨٧
رحلات فاسكو دجاما ١٤٩٧-٩٨
طرق التجارة والرقيق
فرنسا الجديدة
فرجينيا
البرازيل
جيانا
الأطلنطى
المحيط
الهندى
رأس الرجاء
موزمبيق
زنجبار
ماليندى
كاليكوت



خريطة توضح طريق دي جاما من مالندي إلى قاليقوت

مقدمة المترجم

رحلة فاسكو داجاما

فى اطار الجهود الكشفية البرتغالية فى الشرق

تقديم ترجمة لنص يوميات رحلة فاسكو داجاما للهند مرورا بسواحل أفريقيا الغربية فرأس الرجاء الصالح فسواحل أفريقيا الشرقية حتى مالندى (★) ، فالهند — يحسم كثيرا من القضايا التاريخية التى أثيرت حول هذه الرحلة . ومن الغريب أن كثيرين كتبوا عن هذه الرحلة وأشاروا اليها بالرجوع الى مراجع ثانوية كتبت عن الرحلة دون التفكير فى الرجوع لنص الرحلة المتاح نفسه ، وهذه أبسط مبادىء التفكير العلمى .

ولم يجد الباحثون الأوروبيون اسم كاتب هذه اليوميات مكتوبا عليها ، لكنهم رجحوا أن يكون كاتبها هو الفارو فلهو Alvaro velho وهو مواطن برتغالى من مدينة باريرو Barreiro وكان مرافقا لفاسكو داجاما فى سفينته المسماه سانت رافائيل S. Rafael (١) .

ويذكر اريك أكسيلون Axilon أن النص الذى قدمه لقرائه الانجليز مترجم عن المطبوع التالى :

(★) يتوقف نص اليوميات الذى نقدمه عند ابريل ١٤٩٧ وهو النص الذى أتيح لنا ، ونترك لغيرنا متابعة الرحلات للهند — (المترجم) .

Diario da Viagem de Vasco da Gama, fascimile do codice original (Vol. 1, Livararia Civilizaçao, 1945).

لكننا لا نعرف ان كان اكسيلون نفسه هو مترجمه أم أن مترجما آخر قام بهذا العمل ٠

ويتسم النص بالايجاز الشديد ، اما لان كاتبه ليس له فى حرفة الكتابة باع طويل ، واما لأن الظروف كانت تقتضى ذلك مخافة وقوع النص اثناء الرحلة فى أيدى اطراف معادية خاصة ان المعلومات عن الطرق البحرية وخرائطها كانت من الأمور المحظور تداولها علنا ، بل لقد أصدر الملك البرتغالى فى وقت لاحق قرارا بفرض السرية الشديدة على المعلومات المتعلقة بالطرق البحرية وأمر باحراق الخرائط التى يتداولها الناس ، والاكتفاء بما هو موجود بأرشيفات الدولة (٢) ٠

ولم يحدد هذا الرحالة المرافق هدف الرحلة منذ البداية ، اما لأن الهدف كان سريا لا يعرفه الا داجاما وقلة قليلة من المعاونين ، واما حفاظا على السرية للأسباب التى ذكرناها آنفا ٠

★★★

وتفاصيل حياة صاحب الرحلة ــ فاسكو داجاما ــ غير متاحة بما فيه الكفاية ، فالتفاصيل عن الرحلة أكثر من التفاصيل المتاحة عن صاحبها ٠ وان كنا نعلم أنه ولد فى البرتغال فى سنيز Sines حوالى سنة ١٤٦٠ وتلقى جانبا من التعليم فى ايفورا Evora وحظى ببعض الشهرة فكلفه الملك البرتغالى يوحنا الثانى John II ببعض المهام أداها على خير وجه فرضى عنه العرش (٣) ٠

وفى سنة ١٤٩٧ قاد أربع سفن لهدفين محددين هما الوصول لبلاد البهار (الهند) والتحالف مع برستر جون (يوحنا) بعد البحث عنه والالتقاء به ٠ أما البهار فهدف مادى واضح ، فقد كانت أوروبا كلها فى شوق الى بهارات الشرق لأسباب كثيرة ليس هذا مجال تحليلها ، أما الالتقاء

ببرسترجون، فهدف غامض يستحق أن نفرد له بعض الفقرات لارتباطه بالتنوير ، ولتوضيح أثر الخرافات المبثوثة على مسيرة التاريخ ٠

برستر جون المنقذ الذى لا وجود له ، وأمثلة أخرى :

لم تكن فكرة برستر جون (يوحنا) ويقصد بها الأمير الشرقى الذى سيمد يده لأيدى الأوروبيين القادمة من الغرب لخنق الحضارة العربية والقضاء عليها قضاء لا قيامة بعده ٠ لم تكن هذه الفكرة وليدة التاريخ الحديث كما يعتقد بعض الباحثين ، ولم تكن نشأتها مع مطلع حركة الكشوف الجغرافية ، البرتغالية منها بالذات ، وانما تعود الى بدايات الحروب الصليبية ، فقد وجد بعض الرهبان ورجال الدين أنه من المفيد لبث العزم فى المقاتلين اخبارهم عن أمير شرقى سيتحالف معهم بمجرد وصولهم لبلاد الشرق ، ولما انتصرت بعض القبائل البوذية التى كان يعمل بينها بعض النساطرة على السلطان سنجر السلجوقى انتصارا مؤقتا ، قيل ان برستر جون المنقذ سيكون منهم وينفذ المهمة الموعودة ، وأشار الرحالة ماركو بولو الى أن برستر جون يقع وراء بلاد المغول(٤)، ولما حطم المغول بغداد وانساحوا فى الشام قيل: « أقبل برستر جون » بينما من المعروف تاريخيا أن المغول سرعان ما تأثروا بمن هزموهم واعتنق غالبهم الاسلام فى سرعة مدهشة ، حتى ان الباحث الأمريكى روم لاندو يقول : « ان هؤلاء المغول قد خضعوا فى النهاية لدين ضحاياهم وثقافتهم » (٥) ٠

ثم زار مصر سنة ١٤٨٧ رحالة برتغالى كان يعمل لحساب ملك البرتغال وهو بيدرو دى كوفيلهام Covilham ومن مصر ــ عن طريق البحر الأحمر ــ وصل لعدن فالهند ، وفى أثناء عودته زار شرق أفريقيا وسمع بالحبشة ، وكان كثير من المعلومات التى قدمها موضوعا بين يدى داجاما قبل

القيام برحلته ، واعتقد داجاما بناء على هذا التراث الغيبى القديم أن برستر جون المنقذ موجود فى الحبشة ٠

لنقرأ معا ما أحس به داجاما وبحارته عندما سمعوا وهم عند الساحل الموزمبيقي من العرب عن وجود مملكة الحبشة : « لقد أخبرونا أن برستر جون يقع الى الداخل بعيدا عن الساحل ولا يمكن الوصول اليه الا بركوب الجمال ٠٠ وقد جعلنا هذا فى الغاية من السعادة ورحنا نصيح صيحات البهجة ودعونا الرب أن يهبنا الصحة حتي نرى ما نرغب فيه جميعا » (٦) ٠

ولم يهب برستر جون (الحبشى هذه المرة) لنجدتهم أو مساعدتهم ، وضرب داجاما مدن الساحل الأفريقى فى رحلة تالية وأحرقها دون مبرر عسكرى أو حتى تجارى بأمل أن يسمعه برستر جون ويأتى اليه لتحقيق النبوءة القديمة أو الخرافة القديمة — ولكنه لم يأت ، ولما وصلت — بعد ذلك — بعثات الجزويت الى الحبشة ، انشغل البرتغاليون عن التحالف مع برستر جون الحبشى ، بتحويله للكاثوليكية (٧) ، ورفض الأحباش ذلك لتظل كنيستهم — كما هى — ذات طابع شرقى لا يؤثر فيه الاستعمار (٨) ، (٩) ٠

المهم هنا تبيان خطورة الأفكار الغيبية فى توجيه حركة التاريخ ، وهو أمر تعمد بعض المؤسسات والأجهزة لترويجه مستغلة أفكارا أو نصوصا مضت عليها مئات أو آلاف السنين ، ولا يبعد عن هذا كثيرا استغلال الأحاديث المكذوبة (الموضوعة) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لتكريس الكراهية ضد جماعة أو أخرى أو ضد اتجاه أو آخر أو امتصاص الغضب الجماهيرى ٠٠ الخ (١٠) ٠

ويأسف واحد من الباحثين الغربيين (اريك آكسيلون) لأن جنوب أفريقيا كانت بالنسبة للملاحين البرتغاليين فى أواخر القرن الخامس عشر مجرد حائل كئيب كانوا يتمنون

عـدم وجـوده لأنه يحـول بينهم وبين الوصـول الى برستر جون(١١) ، وهكذا منعت هـذه « الفكرة الغيبية » التغلغل لبرتغالى فى منطقة أقرب للبرتغال واكثر نفعا (من منظور ستعمارى) وعندما استيقظت بعد ذلك كانت دول اخـرى وروبية قد سبقتها ٠

★★★

وقد حظيت رحلة دا جاما بشهرة فائقة كما هو معروف لا ان هذا لا يجعلنا نغفل آن فاسكو داجاما عندما آبحر من لبرتغال كان كل ساحل افريقيا الغربى مطروقا ، وسبقه ليه رحالة برتغاليون آخرون ، وقد بدآت هذه الجهود منـذ يام الأمير هنرى الملاح الذى آصـبح حاكمـا للبرتغال فى لفترة من ١٣٨٤ الى ١٤٦٠ :

- ١٤٢٤ الوصول لجزر كنارى واحتلالها
- ١٤٣٠ جزر ماديرا Madera
- ١٤٣٧ جزر أزوروس Azores
- ١٤٣٩ اكتشاف ريو دو أورو Rio de Oro
- ١٤٤١ اكتشاف الرأس الأبيض
- ١٤٤٢ مصب السنغال والرأس الأخضر
- ١٤٦١ الوصول لساحل سيراليون
- ١٤٧١ عبرت السفن البرتغالية خط الاستواء
- ١٤٨٤ ديجو كام Cam يصل لمصب الكنغو
- ١٤٨٦ ــ ١٤٨٨ رحلة بارثولومو دياز Cam الشهيرة الى الطرف الجنوبى لأفريقيا بل وعبره لمسافة قليلة الى الشرق ، وآطلق عـلى النقطة التى عبر منها الى الشرق رأس العواصف وسمى بعد ذلك تيمنا رأس الرجاء الصالح ٠

كما كانت بين يدى داجاما كما سبق آن ذكرنا تقـارير

بعض الرحلات البرية للهند وشرق أفريقيا لرحالة برتغاليين، وربما غير برتغاليين (١٢) ·

مسألة ارشاد البحارة المسلمين لفاسكو داجاما :

شغل الباحثون العرب أنفسهم ردحا من الزمن بمسألة من أرشد فاسكو دا جاما للطريق الى الهند ، وقد وقع هذا العبء فى النهاية على الملاح العربى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد (١٣) ، وتصدى بعض الباحثين مدافعا عن ابن ماجد وناسبا ذلك لمسلم آخر هو المعلم كاناكا من كجرات بالهند · والواقع أن الرجوع للاصول يكفينا مؤونة ذلك كله ·

اننا نفهم من ثنايا نص الرحلة الذى كتبه رحالة مرافق أن فاسكو داجاما اصطحب معه منذ بداية الرحلة ــ أى منذ خروجه من البرتغال بحارا أو ربانا مسلما · يقول : « · · لقد فهم البحار كل ذلك ، وكان القائد العام قد حمل هذا البحار معه ، وكان أسيرا من المسلمين · · ولهذا السبب فقد فهم ما قاله أولئك البشر الذين قابلناهم هنا ، وأكثر من هذا فقد قال هؤلاء المسلمون (السود) اننا سنواجه كثيرا من العقبات المائية shaols · · » (١٤) ·

والمنطقة التى يشير اليها كاتب الرحلة الى الجنوب من سوفالا الحالية (فى موزمبيق) · لقد استقبل السكان هؤلاء الأغراب بترحاب ودلوهم وقدموا لهم المعلومات تطوعا أو بمقابل يسير ، ربما لأنهم لم يكونوا يعرفون أهدافهم ·

ونفهم من ثنايا النص أيضا أن فاسكو داجاما دعا سلطان جزيرة موزمبيق المسلم الى سفينته وأطعمه كثيرا من التين والفاكهة المحلاة بالسكر ، ولما أدرك داجاما أن السلطان قد أحس بالامتلاء رجاه أن يزوده باثنين من المرشدين البحريين « ليذهبوا معنا » وقد وافق السلطان على ذلك « شريطة أن نكافئهم » · حقيقة لقد هرب أحد الدليلين ، وحاول السكان انقاذ الآخر ، لكنهم لم يستطيعوا ، بل ان كاتب

الرحلة يؤكد أن هـذا الدليل المسلم قد نبههم الى كثير من الأخطار وأنه لولاه لتعرضوا للقتل على ساحل شرق أفريقيا (ساحل موزمبيق الحالية) (١٥) ٠

ونفهم أيضا أن سفن دا جاما قوبلت بترحاب بالغ من قبل أحد شيوخ أو سلاطين الساحل ظنا من هـذا السلطان (الشيخ) ان هـؤلاء البرتغاليين أتراك قدموا من بلاد السلطان العثمانى ٠ لنقرأ ترجمة لما قاله هذا البحار المرافق لداجاما :

« وفى اليوم الذى دخل فيه نيقولا كولهو Coelho أقبل زعيم هذه الأنحاء الى السفينة وبصحبته خلق كثير ، واستضافه كولهو ، وأحسن استقباله وقدم له معطفا أحمر ، فقدم له الزعيم (المسلم) مسبحا أسود الحبات كان يضعه حول عنقه دليلا على المحبة والمودة وطلب من نيقولا كولهو أن يعود بقارب برتغالى فأمر له بقارب ، وبعد أن رسا أخذ من كان معه من (البرتغاليين) الى منزله وطلب منهم الاقامة عنده ، وأرسل الى نيقولا كولهو برشا من العجوة المخلوطة بالقرنفل وبذور الكمون ، وأرسل بعد ذلك لقائدنا العام (دا جاما) كثيرا من الهدايا ، لقد فعلوا كل ذلك وهم يظنوننا طوال الوقت أتراكا ، وقد كانوا يسألوننا ان كنا قد قدمنا من تركيا وطلبوا منا أن نريهم سهامنا وكتب الشريعة التى لدينا ٠٠ » (١٦) ٠

ويحدثنا البحار المرافق أن (ملك) موزمبيق أرسل الى داجاما أحد الأشراف وهو لقب يطلق على الذين يدعون الانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه ـ أى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لم يترك بعد وفاته ولدا ، ويصف هذا البحار المرافق الشريف بأنه كان سكيرا من الطراز الأول وكيف عرف هـذا البحار المرافق لداجاما ادمان الشريف للخمر ؟! لابد أنه رأى داجاما يشبع نهمه فى هذا المضمار ٠

وقد طلب هذا الشريف (مندوب الملك) آن يعقــد داجاما سلاما وان يصبح هو والملك أصدقاء (١٧) ٠

ويحدثنا هذا الرحالة المرافق لداجاما أن رجلا وابنــه قد ركبا فى « احدى سفننا ، وقال انه يرغب فى الذهاب معنا ، ما دمنا سنذهب قريبا من مكة (المكرمة) « فهو قد اتى الى موزمبيق كدليــل بحــرى لاحــدى الســفن وهو يريد العودة » (١٨) ٠ ها هو دليل بحرى آخر صحب سفن داجاما الى بقية الساحل الأفريقى حتى مالندى على الأقل ، وربما أقنعه داجاما بالذهاب معه للهنــد ٠ فكاتب الرحلة واعنى هذا البحار المرافق لداجاما قد كتب يومياته باختصار شديد، فالمهمة السرية للرحلة جعلته يكتب فى آقل قدر من الأوراق حتى يمكنه التخلص منها اذا جاء وقت الخطر ، ومن الواضح من سياق الرحلة أن كاتبها لم يكتب هدفهــا منــذ البــداية بوضوح واكتفى بالقول ان الهدف هو البحث عن البهار ، ولكنه لم يشر للهند ٠

ليس ابن ماجد اذن هــو البحــار المسلم الوحيد الذى ســاعد دا جاما فى رحلتــه ، وانما هنــاك مسلمون كثيرون آخرون ساعدوا دا جاما منذ بداية رحلته ٠ ان السياق يوضح أن دا جاما قدم نفســه فى مرحلة من المراحــل لمسلمى شرق أفريقيا عــلى أنه تركى ، أو أنهم فهمــوا انه تركى ، وأنه بالتأكيد قد استثمر هذا الجهل واستغله آبشع استغلال وان لم يعترف كاتب اليوميات ــ صراحة ــ بهذا المكر ٠

وقد حاول بعض الباحثين انكار قيام ابن ماجــد بهــذا العمل (ارشاد دا جاما الى الطريق الى الهند) باعتبــار ابن ماجد كان يقول الشعر فى ذم الخمر وشــاربها ، فكيف يذم الخمر ثم يشربها على مائدة دا جاما ؟! والواقع أنها حجــة واهية فكثيرون هم الذين يلعنون الخمر وشــاربها ، لكنهم يفعلون غير ما يقولون فيشربونها صفراء ذهبية أو شفافة قد رقت «فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر»(١٩) ٠

★★★

ومما يؤسف له أن النص الذى بين آيدينا والذى نشره اريك اكسيلون يتوقف عند يوميات ابريل ١٤٩٨ أى وسفن داجاما فى موضع ما شمال مصب الزمبيزى على ساحل أفريقيا الشرقى ، وبذلك نكون قد حرمنا من متابعة الرحلة الى كلكتا ٠

★★★

أما النص الثانى الذى نقدمه فى هذا الكتاب فهو جانب من رحلة القس الدومنيكانى جاو دوز سانتوس Joao Dos Santos الذى وصل من لشبونة الى موزمبيق سنة ١٥٨٦ ثم ذهب الى سوفالا بناء على تعليمات تلقاها ، لكنه سرعان ما عاد الى موزمبيق فى يوليو ١٥٩٠ وذهب الى سنا Sena وتيت Tete والزمبيزى Zembesi ومكث فى تيت Tete حتى مايو ١٥٩١ وأبحر فى نهر الزمبيزى عائدا الى موزمبيق ، وبشر بالمسيحية فى جزيرة كويرمبا Querimba وعاد الى سوفالا Sofala مرة أخرى فى أبريل ١٥٩٤ ومكث بها حتى ابريل ١٥٩٥ ٠ وجميع المدن التى ذكرناها آنفا تقع فى دولة موزمبيق الحالية ٠ ونص رحلة دوز سانتوس بالاضافة للنص المتاح ليوميات رحلة دا جاما هما أهم نصين متاحين عن الجهود الكشفية البرتغالية فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر آى من رحلة داجاما التى بدأت ١٤٩٧ حتى نهاية رحلة دوز سانتوس فى موزمبيق ١٥٩٥ ٠ والنص الذى نقدم ترجمته فى هذا الكتاب ليس كاملا ٠ وان كان النص الكامل للرحلة قد نشر تحت عنوان Dos Santos's Ethiopia Oriental فى البرتغال سنة ١٦٠٩ ، ونشر الانجليزى صمويل بيرشاس purchas بعد ذلك بفترة ليست قصيرة ترجمة مختصرة (غير كاملة) له ٠ أما النص الذى يطالعه القارىء فى هذا الكتاب فقد نشر فى جلاسجو Glasgow سنة ١٩٠٥ وأعاد نشره اريك اكسيلون Eric Axilon فى كتاب بعنوان South African Explorers نشر فى لندن ١٩٥٤ فى ٣٥٠ صفحة ٠

وفيما يلي عرض لبعض الأفكار التي وردت في رحلته :

العهد القديم واختيار موزمبيق مستعمرة برتغالية دائمة :

ترجع أهمية الرحلات كمصدر للتاريخ ــ بالاضافة لأهميتها في مجالات أخرى ، أنها تورد لنا الافكار الشائعة بصرف النظر عن صحتها ، وهذه الأفكار الشائعة أو المبثوثة أو الراسخة في ضمائر المجموعات البشرية ــ بصرف النظر عن صحتها ــ كثيرا ما توجه أحداث التاريخ . لقد كان من المفهوم أن يتمركز البرتغاليون في منطقة رأس الرجاء الصالح بعد الكشف ، فالرأس هو ممر الطريق الى الشرق ، ولكن البحث عن يوحنا المنقذ شغلهم عن ذلك ، وقد تمركز البرتغاليون في سوفالا على ساحل شرق آفريقيا الى الجنوب من نهر روفوما فيما يعرف بموزمبيق الحالية . ولا شك أن أسبابا عملية دعتهم لذلك ، لكن سببا آخر جوهريا لا يمكن اغفاله ، فقد روج بينهم البعض ان تلال فورا Fura هي تلال الذهب التي كان يغترف منها سليمان عليه السلام والتي وردت في التوراة . يقول القس دوز سانتوس : « وفوق قمة جبل فورا Fura لا تزال ظاهرة للعيان بقايا آسوار قديمة وآثار خرائب من كتل حجرية وصخور مما يشير الى وجود مبان قوية في وقت مضى وهو أمر غير مألوف في كل بلاد الكافير (كافراريا) فحتى بيوت الملوك مشيدة من خشب وطين ومغطاة بقش .. وآهل البلاد خصوصا من المسلمين يروون عن أجدادهم آن هذه المباني كانت للملكة سبأ Saba التي نقلت كثيرا من الذهب من هنا . ويقول آخرون ان هذه المباني كانت تخص سليمان (عليه السلام) وان تلال فورا Fura آو أفورا Afura هذه ليست سوى أفير Ophir ، ولفظ فورا آو آوفورا لا يبعد كثيرا عن آفير Ophir رغم مرور هذا الزمن الطويل . وبالفعل فان حول هذا الجبل ذهبا وافرا من نوع جيد(٢٠)» .

الحاكم فى المجتمع البدائى :

الحاكم أو الملك أو ملك الملوك هو الانسان الكامل من وجهة نظر الشعوب البدائية ، لا ينبغى له أن يضعف او يهن سواء من الناحية الجسمية أو من ناحية القدرة على كل شىء حتى انزال المطر وازالة الجدب • والوضع يختلف بطبيعة الحال ان كان الحاكم قبليا ، فالزعيم القبلى غير الملك أو الحاكم الذى يحكم عدة قبائل أو جماعات • والطريف أن كثيرا من الأفكار البدائية عن الحاكم موجودة على نحو أو آخر فى القرن العشرين رغم كل هذا التطور والتغيير ، فالغابة لا تزال — على نحو أو آخر — فى أعماقنا • لابد أن يكون ملك الملوك فى مجتمع الغابة « فحلا » أى قادرا على التزوج من نساء كثيرات وقادرا على الانجاب ، وأن يكون « مقنعا » للنساء فى هذا المضمار ، فاذا أحس الحاكم بوهن فى هذا المجال كان عليه أن يتنحى أو يقتل نفسه بتناول السم ، فالمفترض أن الملك أو الحاكم قادر على شعبه كله حتى فى هذا المجال ، ومن المعلومات الطريفة التى قدمها دوز سانتوس أن من ألقاب التشريف التى كان يمنحها الملوك فى هذه الأنحاء لقب « زوجة الملك » بمعنى أن الملك ان رضى عن رجل وصفه بأنه « زوجته » وقد منح بعض ملوك هذه الأنحاء بعض القباطنة البرتغاليين هذا اللقب فكانوا « زوجاته » لكن هذا لا يعنى — غالبا — أنه كان يعاملهم كزوجات بالفعل ، على أية حال فان الفكرة — كما نظن — لم تنمح تماما من مجتمع الانسان فعادة ما يصاحب تولى الرؤساء الجدد فى أوروبا وأمريكا الشمالية شائعات عن علاقة جنسية لهذا الرئيس أو ذاك ، ورغم رفضها من الناحية الرسمية فانها تبدو فى حالات كثيرة وكأنها مطلوبة • وفى المجتمع البدائى اذا فقد الملك احدى أسنانه الأمامية أو أصيب بالعرج أو أى عاهة أخرى تجعل صورته ناقصة ، أو أصيب بمرض واضح كالجذام كان عليه تناول السم فى الحال ، فالحاكم لابد أن يكون « كامل الأوصاف » • لكن تطورا مهما

حدث على أيام دوز سانتوس (أواخر القرن السادس عشر) اذ رفض الملك أن يتنحى أو يتناول السم رغم انه فقد أسنانه الأمامية ، وأعلن انه رغم ـ فقد أسنانه ـ سيبقى حفاظا على مصالح الشعب ، وأعلن انه لا ينصح أى ملك من خلفائه بتناول السم لمثل هذا السبب ، وعاب على أجداده أنهم فعلوا ذلك . ولابد أن هذا الملك الجرىء كان لديه من القوة الكافية ما جعله يفرض هذا الرأى على الناس ، أو ـ وهو الأمر المرجح ـ أن يكون متمتعا « بالفحولة » الكافية التى جعلت نساءه يتمسكن به ويبقينه فى القصر الملكى ، فللنساء الملكيات دور كبير فى تعيين الحاكم كما يتضح . من خلال النص التالى :

« وفى اليوم نفسه الذى يموت فيه الكوبتيف (ملك الملوك) يتم حمله الى التل فيدفن حيث دفن الملوك السابقون . وفى بكور اليوم التالى يذهب ملك الملوك الجديد الى منزل ملك الملوك السابق فتستقبله زوجته ومحظياته ويدخل المنزل ـ بموافقتهن وقبولهن ـ ويجلس مع الزوجة الأساسية .. وفى اليوم التالى يعلن الملك فى سائر أنحاء البلاد أنه سيعين ولى عهده ، وفى بعض الأحيان يكون هناك متنافسون كثيرون، وفى هذه الحالة يقوم الملك بقبول من ترشحه النساء ، فلا أحد يمكنه الدخول دون اذنهن ، ولا أحد يمكنه أن يكون ملكا دون رضاهن ، لذا يعمد كثيرون الى رشوة النساء أو ارضائهن بأية وسيلة أخرى لضمان وقوفهن الى جانبه » بل أكثر من هذا فان الملك اذا تناول السم ومات فان ولى العهد لا يمكن أن يبقى دون موافقة النساء رغم تعيينه فى عهد الملك السابق . يقول دوز سانتوس : « .. وعلى ولى العهد أن يحظى بقبول النساء ليصبح ملكا بعد وفاة الملك ، فاذا لم يستلطفنه استدعين فى الليل ـ سرا ـ أميرا آخر يكون قريبا الى قلوبهن فيقدمنه ويجتمعن حوله فى الصالة الملكية ويوعزن

بالاعلان أنه كان وليا للعهد وصار ملكا . أما الآخر الذى لم يحظ برضاء نساء الملك المتوفى فانه يهرب خوفا على حياته . وقد يجمع أعوانا ويدخل القصر الملكى بالقوة ولكن هذا نادر الحدوث ، فالملك هو من ترضى عنه نساء القصر(٢١)» .

والحاكم فى المجتمع البدائى لابد أن يكون متفردا فلا ينبغى لأحد أن يصفف شعره بالطريقة التى يستخدمها الملك ولا ينبغى أن يضع قرونا كقرونه (٢٢) .

العدالة وشرطة الملك :

ويعجب المرء من قوة التراث الوثنى الذى لازالت آثاره باقية حتى اليوم رغم هداية الأديان السماوية التى ظلت تكافح الوثنية اكثر من ألفى عام . فدوز سانتوس يحدثنا أن دليل براءة المتهم هو لعق حديدة محماة فان كان بريئا لم يحرق لسانه وان كان مذنبا أحرق ، واذا كان سكان منطقة مصب الزمبيزى وسكان حوض نهر سوفالا يسمون هذه الحديدة المحماة (زكوا) فان البدو فى صحراء مصر الشرقية والغربية وسيناء يسمونها (بشعة) ، وثمة دليل آخر هو تناول سم معين لا يحدث تأثيرا فى البرىء ، ويقول القس ان أحد البرتغاليين اتهم عبده بالسرقة وقدم له السم فلعقه ولم يصبه بشىء ، ونحن هنا ازاء حالات لم تخضع للدراسة العلمية بشكل كاف ، أو أن التأثير الروحى والنفسى لهما قوة هائلة لم يفجر العلم طاقاتها بعد .

ويحدثنا سانتوس أن عقاب المذنب فى بعض الجرائم هو مصادرة ممتلكاته ويقصد بها زوجته وأطفاله ومتاعه ، اذ يتم اقتسام هذه الأشياء جميعا بين الملك والمبلغ (بتشديد اللام وكسرها) مما يعطى مباحث الملك قوة هائلة ، ومن حق (شرطة) الملك أن يحصلوا على ما يريدون من الناس دون

مقابل سواء رضوا أم أبوا · وتبتعد المجتمعات الحديثة عن هذه الممارسات بقدر بعدها عن الوثنية (٢٣) ·

ولم يضف دوز سانتوس كثيرا لعلم الجغرافيا الطبيعية ولم يقدم تفاصيل كافية عن نهر الزمبيزى ، وبالتالى لم يحدد منابعه ، ورغم كل هذا فان وصفه التفصيلى للحياة والعادات والتقاليد ، والنبات والحيوان فى هذا الساحل الموزمبيقى وبعض ظهيره الداخلى جعله لفترة طويلة مرجعا أساسيا عن هذه الأنحاء ·



كلمة أخيرة :

واذا قلنا فى ثنايا الصفحات السابقة ان رحلة داجاما مهمة فى ذاتها لأبعادها العالمية ولتأثيراتها الحاسمة فى مسيرة التاريخ الحديث بشكل عام، والحركة الاستعمارية الأوروبية بشكل خاص ، فانها أيضا أى رحلة داجاما بالاضافة لكتابات دوز سانتوس هما أهم جهود كشفية برتغالية فى القرن السادس عشر فى القارة الأفريقية بحيث انه كان يمكننا ببساطة أن نضع لهذين النصين بالاضافة لما كتبناه كمقدمة لهما عنوانا هو : الجهود الكشفية البرتغالية فى أفريقيا فى القرن السادس عشر لكن هذا لا يمنع وجود رحالة آخرين لم يتركوا لنا نصوصا لرحلاتهم أو لم يعثر الباحثون عليها ، لذلك لزم التنويه ببعض هذه الجهود من خلال عرضنا لما كتبه اريك اكسيلون ، وهو ما نعرضه فى السطور التالية ·

لقد دارت سفن داجاما حول الرأس · ولم تمض على نهاية القرن السادس عشر الا خمس سنوات حتى أسس البرتغاليون مستوطنة فى سوفالا بالقوة ، وبعد عامين فقط وضع البرتغاليون أقدامهم بشكل دائم فى موزمبيق · وسرعان ما أكدت هذه المحطة فائدتها وقيمتها اذ أصبحت مرفأ للسفن، وكان يمكن للسفن الانتظار فيها حتى يتغير اتجاه الريح ،

واتبتت الأيام ـ كما يقول اكسيلون ـ أن سوفالا وما حولها ليست هي أوفير Ophir (منجم الذهب المشار اليه في العهد القديم) • ولما فشل التجار المسلمون في امداد القلاع البرتغالية بما كانت تطلبه من تبر Gold-dust ومؤن ، تم ارسال احد البرتغاليين ليبحث عن هذين المطلبين • وكان هذا البرتغالي مطرودا من البرتغال ومنفيا الى أفريقيا لارتكابه بعض الجرائم • وقام هذا الطريد برحلتين أو أكثر قبل ١٥١٤ لكننا لا نعرف عن رحلاته هذه الا القليل من خلال التقارير الرسمية القليلة • وقد كشف هذا الرجل معظم ما نعرفه اليوم باسم ماشونالاند Mashonaland وكان يركز في تقاريره على الذهب والغلال • وحقق شهرة واسعة بين أهل البلاد فاعتبروه رجلا طيبا • وكان اسمه انتونيو فرناندز Antonio Fernandes وهو يعد أول ـ وربما أعظم ـ مكتشفي المناطق الداخلية لجنوب أفريقيا • لكن شيئا من مكتشفاته لم ينشر •

وزادت المعلومات عن المناطق الساحلية لجنوب أفريقيا بسرعة كبيرة بسبب عمليات البحث عن أحياء بين حطام السفن على السواحل • ففي حوالى سنة ١٥١٤ قام يوحنا (جون) اللشبوني الدليل البحري الذى ربما يكون قد صاحب فاسكو داجاما في رحلته الأولى ـ قام بتجميع سجل رسمي لخط سير الرحلة وقدم وصفا للكائنات الطبيعية على الساحل وتفصيلات جغرافية أخرى • أما الناجون من السفن المحطمة فكانوا يصلون الى أى مكان يمكنهم الوصول اليه وقد سجل بعض الناجين من هذه السفن تجاربهم ولكنها كانت تتعرض لما واجهوه من صعوبات ولم تكن أعمالا وصفية علمية تصف الطبيعة والسكان • فعلى سبيل المثال نجد أن سبلفيدا Manael de Spulveda كان قائدا للسفينة سانت جاو Pondo-St. Joao التي جنحت لأرض البندولاند land سنة ١٥٥٢ ومع ذلك لم يحقق خليج Delagoa Bay (★)

(★) أى لم يدرك انه في خليج دلجو ـ (المترجم) •

وهو الخليج الذى جنحت سفينته عنده وقام المؤلف الذى كتب مأساة هذه الرحلة بالتركيز على الحياء والخجل الذى اعترى السيدة دونا ليونور Dona Leonor زوجة القبطان سبولفيدا عندما رأت الرجال الأفريقيين عراة · لقد احمر وجهها ، وراحت تفتح عينيها لتنظر ثم تغمضهما وهى تقول : «اوه» ·· أو «آه» أو تخرج بعض الاصوات الأخرى، واعتبر المؤلف ذلك خجلا ، وراح يصف زوجة القبطان وهى فى حالة « الخجل » هذه دون أن يصف لنا الأفارقة · اما بالنسبة للمستعمرات البرتغالية ، فبناء على نصيحة فرناند المجرب (المجرم التائب آنف الذكر) تم القيام بأول استطلاع تجارى فى جنوب أفريقيا عن طريق الزمبيزى ، لذا ففى منتصف القرن السادس عشر كانت هناك بعض التجمعات البرتغالية حتى ما يعرف اليوم باسم زمبابوى وهى مونوموتابا Monomotapa التى أشار اليها دوز سانتوس فى رحلته ، لكن هؤلاء التجار كانوا منشغلين بتجارتهم أكثر من انشغالهم بكتابة مذكرات أو يوميات عن المنطقة بل ان المبشر الجزويتى دا سلفيرا الشهير da Silveira عندما تعرض للقتل لم يحرك التجار البرتغاليون ساكنا وكأن الأمر لا يعنيهم ، لكن مقتل هذا المبشر قد أوجد المبرر على أية حال للتدخل فى شئون المونوماتابا والاستيلاء على مناجم الذهب بعد ذلك (٢٤) ·

هذا العرض الكامل يؤكد للقارىء والباحث أننا قدمنا أهم نصين عن الكشوف البرتغالية فى أفريقيا منذ الأعوام الأخيرة للقرن الخامس عشر حتى الأعوام الأخيرة من القرن السادس عشر ، هذا ان لم يكن هذان العملان هما الأهم على الاطلاق ـ بالاضافة ـ كما سبق القول ـ للبعد العالمى لرحلة فاسكو داجاما ·

والله من وراء القصد

د · عبد الرحمن الشيخ

من يوميات رحلة واجاما

بقلم بحار مرافق



باسم الرب • آمين

في سنة ١٤٩٧ وفي عهد مليكنا دوم مانويل Dom Manoel — أول من حمل هذا الاسم من ملوك البرتغال — صدرت الأوامر لأربع سفن بالخروج في رحلة كشفية بحثا عن البهارات • وكان فاسكو داجاما هو القائد الأعلى لهذه السفن ، وفاز باولو داجاما — أخو فاسكو — بقيادة احدى السفن ، بينما حظى نيكولو كولهو Nicolau Coelho بقيادة سفينة أخرى •

وأقلعت سفننا من رستيلو Restelo يوم السبت الموافق لليوم الثامن من شهر يوليو من العام الذى ذكرته آنفا (١٤٩٧) عسى أن يسمح الله لنا أن نكمل رحلتنا ابتغاء مرضاته • آمين •

أولا — لقد وصلنا يوم السبت التالى بحيث نرى جزر كنارى Canaries (٢٥) ، وفى تلك الليلة جرفتنا رياح لانكاروت• وبعد الليلة التالية وجدنا أنفسنا فى مطلع الصباح على مبعدة من ترا آلتا Terra Alta على الساحل الغربى لأفريقيا) (٢٦) فرحنا نصطاد السمك لحوالى ساعتين ، وفى هذه الليلة كنا بعيدين عن ريودوريو Rio do Ouro عندما حل الغسق ، وقد كان الضباب كثيفا حتى أن باولو داجاما افتقد أثر الأسطول كله ، فاتخذ طريقا غير الذى اتخذه القائد العام ولما طلع النهار لم نر سفينة القائد العام ولا أية سفينة أخرى فاتخذنا سبيلنا الى جزر كاب فيردى (الرأس الأخضر) (٢٧) لأن الأوامر كانت قد

صدرت الينا سابقا بأن آية سفينة تضل طريقها على قائدها أن يرسو في هذه الجزر ٠

وفي يوم الأحد التالى رأينا في الصباح جزيرة سال Sal وبعد ساعة وقعت أنظارنا على ثلاث سفن ، فراقبناها بانتباه فوجدنا سفينة التموين وسفينة نيكولو كولهو وسفينة بارثلومو دياز (٢٨) التى كانت ذاهبة ــ بصحبتنا ــ الى مينا Mina (٢٩) ٠ وكانت هذه السفن بدورها قد افتقدت سفينة القائد العام (فاسكو) ٠ وبعد أن التأم شملنا واصلنا ابحارنا معا الا أن الريح كانت خاملة فاضطررنا للتوقف حتى صباح الأربعاء ٠

وفي الساعة العاشرة وقعت أبصارنا على سفينة القائد العام على بعد خمسة فراسخ (٣٠) وباقتراب فترة ما بعد الظهر كنا نتحدث معه بسعادة تفوق الوصف ، وأطلقنا كثيرا من القذائف ونفخنا في الأبواق تعبيرا عن فرحتنا الكبرى بالعثور عليه ٠

وفي اليوم التالى وكان يوم خميس وصلنا لجزيرة سنتياجو Santiago حيث غمرتنا الفرحة والسعادة فاقتربنا من ساحل سانتا ماريا Santa Maria وتزودنا باللحم والماء والأخشاب وأصلحنا ماهو ضرورى في عوارض سفننا ٠

وفي يوم الخميس الموافق الثالث من شهر أغسطس غادرنا مبحرين صوب الشرق وفي الثامن عشر من الشهر نفسه كنا على بعد حوالى مائتى فرسخ من جزيرة سنتياجو ٠ وكسرت رياح الشمال العارضة الرئيسية لسفينة القائد العام ، فأوقفنا السفينة تحت الشراع الأمامى والشراع الرئيسى ليومين وليلة ٠

وفي ٢٢ أغسطس شرعنا في الابحار في اتجاه الجنوب الغربى فوجدنا كثيرا من الطيور التى تشبه طائر البلشون

(مالك الحزين) ولما اقترب الليل طارت صوب جنوب الجنوب الشرقى طيرانا قويا كالطيور التى تشكل ـ أثناء طيرانها ـ شكلا يشبه اللسان الداخل فى البحر foreland وقد رأينا فى هذا اليوم نفسه حوتا ٠

الجمعة ٢٧ أكتوبر :

وفى يوم الجمعة الموافق للسابع والعشرين من شهر أكتوبر، وهو يوم القديس سيمون ويهوذا Simon and Judas ؟) لاحظنا كثيرا من الحيتان وذئاب البحر Sea wolves وتلك الحيوانات البحرية التى تسمى الفقمات quoquas ٠

الأربعاء ، أول نوفمبر :

وهو يوم القديسين ، لاحظنا كثيرا من العلامات الدالة على اليابسة ، فبعض الأعشاب البحرية والطحالب البحرية كانت نامية على طول الساحل ٠

السبت الرابع من نوفمبر :

وجدنا فى هذا اليوم ، قبل الفجر بساعتين ، قاعا بحريا لا يقل عن ١١٠ فازومات (مائة قامة وعشر قامات) وفى الساعة التاسعة من اليوم نفسه شاهدنا برا ، فاقتربت السفن من بعضها ، وحيينا القائد العام برفع الأعلام والرايات (الألوية) Flags and Standards وأطلقنا المدافع ، ولبسنا ملابس الاحتفالات ـ ولما اقتربنا من البحر ، غيرنا اتجاه السفينة لعرض البحر (المحيط) فنحن لم نتعرف على هذه اليابسة بعد ٠

الثلاثاء السابع من نوفمبر :

فى هذا اليوم عدنا لليابسة التى كنا قد عزفنا عن النزول عليها فرأينا منطقة منخفضة وخليجا كبيرا ، فقام

القائد العام يارســال بيرو دى آلنـــكوير Pero de Alenquer لاستطلاع المنطقة ومعرفة ما اذا كان يمكننــا اللجوء اليهــا ووجد بترو Pétro أنها منطقة صالحة جدا ، يمكن للسفن أن ترسو بها ، فالقاع خال من العوائق ، وهى محمية من الرياح فيما عدا الرياح الشمالية الغربية ، ويمتد هذا الخليج من الشرق الى الغرب ، وقد أطلقوا عليه اسم خليج القديسة هيلانة (سانت هيلانا (St. Helena .

الأربعاء ، الثامن من نوفمبر :

فى هذا اليوم ألقينا مراسينا فى خليج ســانت هيلانة آنف الذكر ، ومكثنا هنا ثمانية أيام ننظف السفن ونصــلح الأشرعة ونجمع خشب الوقود ٠

وعلى بعد أربعة فراسخ من هذا الخليج فى اتجاه الجنوب الشرقى يوجد نهر ينبع من المناطق الداخلية وتتناثر الصخور فى مجراه عند مصبه ، ويبلغ عمقه فازومين (قامتين) أو ثلاثة فازومات عند المد ويسمى نهر سنتياجو Santiago River وتعنى نهر الجبل الجليدى العظيم the Great Berg River (؟) ٠

والناس فى هــذه المنطقة داكنو البشر ، وهم لا يأكلون الا ذئاب البحر Sea-wolves والحيتان ولحوم الغزلان وجذور النباتات ٠ ويضع الواحد منهم عــلى عــورته غطــاء ٠ أما أسلحتهم ففروع من أشجار الزيتون البرية يعالجونها بقرون الحيــوانات التى يشــكلونها بالنــار ٠ ولديهم كلاب كثيرة كالكلاب فى البرتغال وتنبح مثلها ٠

وطيور هذه المنطقة كالطيور فى البرتغال وهى طيــور الغاق Cormorants (٣١) وطيور زمج الماء Gulls (٣٢) والأطرغلات Turtle-doves (٣٣) والقبرات larks (٣٤) وطيور أخرى كثيرة ٠ وأرض المنطقة مزدهرة بالأعشاب الريانة ، ومناخها صحى ومعتدل ٠

وفى اليوم التالى لاستراحتنا فى هذه المنطقة ، وكان يوم خميس ذهبنا للساحل مع القائد العام واقتنصنا احد رجال المنطقة • لقد كان ضئيل البدن ، وبدا مثل سانشو مكسيا Sancho Mexia • وكان فى طريقه لجمع عسل النحل البرى من المناطق القاحلة فنحل هذه الأنحاء يضع عسله على أطراف الأدغال • وأخذنا هذا الرجل الى سفينة القائد العام، فأجلسه القائد العام على مائدته ، فأكل من كل ما اكلنا منه • وفى اليوم التالى آلبسه القائد ملابس جميلة جدا وآمر بارساله للساحل • وفى اليوم التالى أتى الى سفينتنا اربعه عشر رجلا أو خمسة عشر فأراهم القائد العام بضائع كثيرة ليعرف ما اذا كان لديهم منها أم لا • لقد آراهم قرفة ، وقرنفلا ولؤلؤا Seed pearls وذهبا وغير ذلك ، فاتضح آنهم لا يعرفون عنها شيئا فقد بدا كأنهم لم يروا مثلها من قبل ، فأعطاهم القائد العام أجراسا صغيرة وحلقات من صفيح • لقد حدث هذا يوم الجمعة ، وحدث شىء كهذا يوم السبت التالى •

وفى يوم الأحد أتى حوالى أربعين أو خمسين منهم ، وبعد أن تناولنا غداءنا ذهبنا للساحل فاشترينا بالسيتيلات Ceitils — وهى عملات نحاسية صغيرة كنا قد جلبناها معنا من البرتغال — عددا من القواقع (أو الأصداف أو المحارات) التى يعلقونها فى آذانهم والتى بدت وكأنها قد غطيت بالفضة ، وذيول الثعالب التى ثبتوها فى عصى والتى كانوا يحملونها معهم ويستخدمونها كمراوح (للتهوية بها على وجوههم) ، وفى هذه المناسبة اشتريت بسيتيل واحد Ceitil قطعة القماش (أو القراب) الذى كان أحدهم يغطى به عورته • وقد عرفنا من خلال هذه التعاملات انهم يقدرون النحاس ويعرفون قيمته ، بل انهم كانوا يضعون خرزات نحاسية صغيرة فى آذانهم •

وفى اليوم نفسه أبدى شخص اسمه فرناو فيلوسو Fernao Veloso كان مرافقا للقائد العام — رغبة شديدة

فى الذهاب مع هؤلاء الناس الى منازلهم ليعرف أسلوب حياتهم وماذا ياكلون وما الى ذلك ، وتوسل فرناو الى القائد العام ان يأذن له فى ذلك ، ورأى القائد العام انه لن يستطيع التخلص من الحاحه ، فسمح له وعدنا الى سفننا لتناول العشاء ، وذهب هو مع هؤلاء الزنوج negroes • وبعد أن تركونا — مباشرة — اصطادوا ذئب بحر Sea Wolf وذهبوا الى سفح تل فى مكان قاحل ، وشووه ، وقدموا بعضا منه بالاضافة لبعض جذور النباتات لفرناو Fernao الذى صحبهم ، وبعد انتهائهم من تناول طعامهم أخبروه انه يجب عليه أن يعود الى السفن ، فلم يكونوا راغبين فى أن يصحبهم • ولما أصبح هذا المدعو فرناو فى مواجهة السفن بدأ يصيح بينما ظل الرجال (السود) مختبئين فى الأدغال • لقد كنا مازلنا نتناول عشاءنا ، لكن بمجرد أن سمعنا الصيحة ، هب القباطنة تاركين الطعام وهببنا معهم ، وألقينا بأنفسنا فى قارب ابحار ، وبدأ الزنوج يجرون على طول الساحل واقتربوا — كاقترابنا — من المدعو فرناو فيلوسو ، وبينما كنا نبذل قصارى جهدنا لوضعه فى القارب ، راحوا يهاجموننا برماح يحملونها معهم ، فجرحوا القائد العام وأربعة رجال أو خمسة منا • وكل هذا لأننا وثقنا بهم ، وقد ظهروا لنا غير شجعان بما فيه الكفاية لذا فقد نزلنا للساحل غير آبهين بهذه الأسلحة التافهة ثم عدنا لسفننا •

السبت ١٨ نوفمبر ورؤية رأس الرجاء الصالح :

وقد أبحرنا بسفننا مغادرين هذا البر بعد أن أصبحت سفننا جاهزة للاقلاع وبعد أن جمعنا خشبا للوقود ، وكان اقلاعنا فى صباح يوم الخميس الموافق للسادس عشر من شهر نوفمبر • ولم نكن نعرف المسافة الباقية لنا لنصل لرأس الرجاء الصالح الا أن بيرودى التكوير Pero de Alenquer ذكر أننا — فى الغالب — على بعد ثلاثين فرسخا منه • والسبب فى أن بيرو لم يكن متأكدا من المسافة بيننا وبين

الراس انه كان قد غادر رأس الرجاء الصالح ذات صباح ومن دون انتباه ليلا ، لذا فلم يكن قادرا على تحديد الموضع الدى نحن فيه (٣٥) • ولهذا السبب فاننا غيرنا اتجاهنا صوب البحر (المحيط) فى اتجاه جنوب الجنوب الشرقى ، وبعد ظهيرة يوم السبت وقعت ابصارنا على رأس الرجاء الصالح • وفى هذا اليوم نفسه أبحرنا مبتعدين عن ساحل الرأس وفى الليل اتجهنا للساحل • وفى صباح السبت الموافق ١٩ نوفمبر ابتعدنا مرة أخرى عن ساحل الرأس ولكننا لم نكن قادرين على الدوران حوله لأن الرياح كانت جنوب الجنوب الشرقى ، بينما كان الرأس يقع الى الشمال الشرقى والى الشمال الغربى وفى اليوم نفسه استدرنا وغيرنا اتجاهنا للبحر (للمحيط) وفى يوم الأحد ليلا غيرنا اتجاهنا فى اتجاه البر • وفى منتصف نهار يوم الأربعاء استطعنا المرور وتجاوز الرأس وأبحرنا بطول الساحل وعلى طول رأس الرجاء الصالح هذا ، ناحية الجنوب يوجد خليج عظيم جدا يتغلغل فى البر مالا يقل عن ستة فراسخ ، ويبلغ عرض فتحته من ناحية البحر مالا يقل عن ستة فراسخ •

السبت ٢٥ نوفمبر ودخول خليج ساوبراس Sao Bras :

وفى الخامس والعشرين من شهر نوفمبر ، وهو يوم السبت ـ يوم القديسة كاترين St Catherine دخلنا ـ بعد الظهر ـ خليج ساو براس (خليج موسل (Mossel Bay فألقينا مراسينا لثلاثة عشر يوما ، لأننا قد فككنا السفينة التى كانت تحمل المؤن ونقلنا المؤن الى سفن آخرى •

الجمعة ٢٦ نوفمبر :

وفى هذا اليوم بينما كنا لازلنا نلقى مراسينا فى الخليج آنف الذكر وصل حوالى ثلاثين شخصا كانت ألوانهم داكنة كألوان أولئك الذين رأيناهم فى سانت هيلانة ، وكان بعضهم يقترب ناحية الساحل ، بينما بقى الآخرون فى لتلال ، وفى هذا الوقت كنا جميعا ـ أو معظمنا ـ فى

سفينة القائد العام ، ولما رأيناهم ذهبنا للساحل بالقوارب ، التى سلحناها جيدا • ولما اقتربنا من الساحل نشر القائد العام أجراسا صغيرة ــ على البر ــ لهم ، الا أنهم اقتربوا ليأخذوا بعضا منها من يدى القائد العام ، وقد اعترتنا الدهشة الشديدة لأنه عندما كان بارثولومو دياز Bartolomeu Dias هنا نفروا منه ولم يأخذوا أى شىء قدمه لهم ، لكن ذات يوم بينما كانوا ينهلون الماء من مورد ماء طيب عند حافة البحر ، قاموا بالدفاع عن المورد بقذف الحجارة من قمة التل الذى يعلو موضع هذا الماء ، فقام بارثولومو دياز باطلاق سهم نارى Cross-bow عليهم فأردى احدهم قتيلا • ونظن أنهم لم يهربوا منا لأنهم فيما يبدو قد سمعوا عنا أخبارا من السكان القاطنين عند خليج سانت هيلانة (فقد سبق أن مررنا عليه) الذى يبعد عن الرأس من طريق البحر بحوالى ستين فرسخا ، ومؤدى هذه الأخبار أننا أناس غير شريرين بل ونبعثر ممتلكاتنا ونقدمها لغيرنا • ولم يرغب القائد العام فى الذهاب للساحل فى هذه المنطقة لكثافة الغابات التى يوجد بها هؤلاء السود (الزنوج) لذا ، فقد تحرك بالسفن ورسا بها فى منطقة مكشوفة وأعطينا لهؤلاء السود (الزنوج) اشارات مؤداها أن يتبعونا ، وقد فعلوا، ونزل القائد العام الى الساحل ومعه القباطنة الآخرون وصحبهم رجال منا مسلحون ، كان بعضهم يحمل قوسا ونشابا Crossbow وقد أمر القائد العام هؤلاء السود ــ عن طريق الاشارة ــ بالابتعاد ، وألا يقترب منهم الا رجل أو رجلان ، فقدم القائد لمن سمح لهم بالاقتراب أجراسا وأغطية رأس حمر فقدموا لنا أطواقا من العاج كانوا يطوقون بها أذرعهم فاستنتجنا أن المنطقة غنية بالأفيال ، وقد رأينا فيلا يهبط الى مورد الماء الذى يشربون منه •

السبت ٢٧ نوفمبر :

وفي يوم السبت وصل حوالى مائتين من الزنوج السود) بينهم الضخام وضئيلو الجسم ، وقد احضروا معهم حوالى اثنى عشر رأس ماشية (ثيران وأبقار) بالاضافة لأربعة رءوس من الأغنام أو خمسة ، فلما رأينا ذلك ذهبنا جميعا الى الساحل ، وبدءوا فجأة يعزفون على أربع آلات نفخ أو خمس، وكان بعضهم ينفخ نفخا قوياوآخرون ينفخون نفخا خفيضا ، ولم نكن نتوقع هذا الاتقان الهارمونى (المتناسق) منهم ، فأمرنا القائد العام بالنفخ فى أبواقنا ورقص من كان منا في القوارب ، بل لقد رقص القائد العام عندما أصبح معنا • وبعد أن انتهينا من هذا المهرجان عدنا للساحل حيث كنا وأخذنا من هؤلاء السود ثورا أسود وأعطيناهم ثلاث حلقات (أساور) ، وتناولنا غداءنا من لحم هذا الثور يوم الأحد • لقد كان دسما جدا لذيذ المذاق كلحوم ثيران البرتغال •

رقص الأحد :

وفي يوم الأحد وصل عدد كبير من الرجال (السود) ــ كالأعداد التى وصلت يوم الأحد ــ وكانوا فى هذه المرة يصحبون زوجاتهم وأطفالهم لكنهم أبقوهم (الأطفال والزوجات) على قمة التل بالقرب من ساحل البحر وجلبوا معهم كثيرا من الثيران والأبقار ، وقد قسموا أنفسهم الى مجموعتين على طول الساحل وراحوا يعزفون ويرقصون بالطريقة نفسها التى حدثت يوم السبت • ومن عادة هؤلاء الناس أن يبقى الشباب منهم فى الأدغال حاملين السلاح ، وأن يأتى الرجال منهم للتحدث معنا حاملين معهم بعض العصى القصيرة وبعض ذيول الثعالب مثبتة فى أطراف عصى يهوون بها (لجلب الهواء لأنفسهم بتحريكها) وبينما كنا نتناقش معهم بالاشارات رأينا شبابهم يتحركون فى الأدغال

وهم ينحنون ليتواروا عن الأنظار • وليختلسوا النظر وقد حملوا أسلحتهم • وقد امر القائد المدعو مارتيم أفونسو Martim Afonso الذى سبق له أن سافر الى المانيدونجو Manicongo ان يتقدم واعطاه حلقتين (سوارين) ليبادلهم بهما تورا، وبعد أن أخذوا السوارين أمسكوا بيده واشاروا الى نبع الماء وسألوا : لماذا نأخذ ماءهم ؟ وبدءوا يقودون ثيرانهم نحو الأدغال ؟ فلما رأى القائد العام ذلك أمرنا بالتجمع وأمر المدعو مارتيم أفونسو بالاحتماء فقد بدا له أنهم قد أضمروا الغدر • ولما تجمعنا ذهبنا الى حيث موقعنا الأول ، فتبعونا ، وأمرنا القائد العام بالذهاب للساحل محملين بالرماح العادية والرماح النحيلة الشبيهة برماحهم lances and assagais وأقواسنا ونشاباتنا Cross-bows ولبسنا دروعنا •• وقد فعلنا كل ذلك لمجرد اظهار أننا أقوى من أن نلحق بهم الضرر وأننا لا نرغب فى ايذائهم، ولما رأوا ذلك بدءوا يتجمعون معا ويفرون هنا وهناك ، وقد أمرنا القبطان بالعودة للقوارب حتى لا يتيح لنا قتل أى منهم ، وبعد أن تجمعنا معا لنجعلهم يفهمون أننا قادرون على ايذائهم لكننا غير راغبين فى ذلك ، أمر القائد باطلاق النار من المدفعين bombards الموجودين فى مؤخرة القارب • لقد جلسوا جميعا على الساحل قرب الأدغال ، لكنهم عندما سمعوا صوت اطلاق المدفعين بدءوا يفرون بسرعة مجنونة داخل الأدغال حتى انهم تركوا خلفهم الجلود التى تغطيهم بل وتركوا أسلحتهم ، وبعد أن أمنوا داخل الأدغال أرسلوا رجلين منهم لجمع ما خلفوه ثم صعدوا لقمة التل يقودون ماشيتهم أمامهم •

الثيران :

وثيران هذه المناطق سمينة جدا ، كثيران اليمتيجو Alemtego ودهونها كثيرة بشكل مدهش ، وهى أليفة جدا ومخصية وبعضها ليس له قرون • ويعمد هؤلاء السود

(الزنوج) الى أسمنها • فيضعون على ظهورها سروجا من قصب Reeds كتلك التى يستخدمها آهل قشتالة Castile ويثبتون فوقها بعض العصى ليمسكوا بها فيتمكنوا من الرسوخ فوق ظهورها عند الركوب • ويغرسون عصا Cistus Stick فى منخرى الثور تعينهم على قيادته •

ذئاب البحر :

توجد جزيرة صغيرة فى هذا الخليج ، فلما انطلقت ثلاثة أسهم فى اتجاه البحر ، امتلأت الجزيرة بذئاب البحر Sea Wolves (Seal island) بعضها ضخم جدا كالدببة • لقد كان منظرها مرعبا بأنيابها الهائلة فأرهبت الرجال ، ولم تكن الرماح ولا غيرها بقادرة على جرحها ، وكان بعضها صغير الحجم ، وكان بعضها الآخر أصغر • وكانت الضخام منها تزأر كالأسود والصغار منها تثغو كالماعز • وقد ذهبنا الى هذه الجزيرة يوما للترفيه فرأينا حوالى ثلاثة آلاف منها بين ضخم وضئيل وأطلقنا عليها المدافع bombadrs من البحر • وكان فى الجزيرة طيور حجم الطائر منها فى حجم البطة وهى لا تطير فليس فى أجنحتها ريش وتسمى Fotilicaios وقد قتلنا عددا كبيرا منها وهى تنهق كالحمير •

ونصبنا الصليب :

وبينما كنا فى خليج ساو براس Sao Bras هذا ، نسير فى اتجاه الماء ذات يوم أربعاء رفعنا الصليب والبدراو Padraor (٣٦) A cross and وجعلنا الصليب خارج الصارى المزينى Mizzenmast وهو الصارى الأقرب لمؤخرة السفينة فأصبح عاليا جدا ، وفى يوم الخميس التالى — لما كنا على وشك مغادرة الخليج — رأينا حوالى عشرة زنوج أو اثنى عشر زنجيا يقذفون الصليب والبدراو Pardrao قبل رحيلنا •

الرحيل عن خليج ساو براس :

وبعد أن تزودنا بكل ما هو ضرورى غادرنا الخليج ، وفى اليوم نفسه كان علينا أن نتوقف بعد أن قطعنا فرسخين فقط بسبب هبوب الريح ، وفى يوم الجمعة صباحا وهو يوم سيدتنا راعية الفهم والادراك Lady of Conception (لعلها قديسة) (٣٧) نشرنا أشرعتنا وواصلنا الابحار ٠

وفى يوم الثلاثاء التالى ــ يوم القديسة لوشيا Santa Lucia تعرضنا لعاصفة هوجاء ودفعتنا الريح دفعا شديدا وأمالت الشراع الأمامى بعنف ٠ وفى صباح هذا اليوم افتقدنا نيكولاو كولهو Nicolau Coelho لكننا رأينا قمة سفينته عند مغرب الشمس على بعد أربعة فراسخ أو خمسة الى الخلف منا ، وبدا لنا انه رآنا ، وقد أشعلنا نارا كاشارة له (أعطينا له اشارات ضوئية) وأوقفنا سفينتنا ، وبعد انتهاء الهزيع الأول من الليل أدركنا ، لا لأنه كان قد رآنا أثناء النهار وانما لأن الريح كانت تهب فى عقدة منفردة bowline فلم يكن يملك الا أن يترك سفينته تنزلق (تندفع) فى اثرنا in our wake

جزر الطيور :

وفى يوم الجمعة صباحا رأينا البر الذى يطلق عليه اسم الهاس شاوس Ilheus Chaos (الجزر المستوية أو جزر الطيور) ٠ وهذه الجزر خلف جزر كروز Ilhu de Cruz (St Croix island) بخمسة فراسخ ٠ ومن خليج ساو براس Sao Bras الى جزر كروز ستون فرسخا ، والمسافة نفسها بين رأس الرجاء الصالح وخليج ساو براس، ومن جزر الطيور (Ilheus choos) الى آخر بادراو Padrao (شارة الصليب البرتغالية) التى وضعها بارثولومو دياز Bartolomeu Dias (فى كوايهوك

(kwaaihoek) يوجد خمسة فراسخ آخرى ، ومن البدراو الى نهر السمك العظيم Rio de Infante (Great Fish River) خمسة عشر فرسخا •

المرور بآخر شارة صليب (بدراو) :

وفى يوم السبت التالى تجاوزنا آخر بدراو ، وبينما كانت سفننا تهبط (تنحدر) بمقدار رجلين بدآت تجرى على طول الساحل المواجه لنا • لقد كانت الأرض هنا جذابة جدا وذات موقع رائع ورأينا كثيرا من القطعان تجول هنا ، وكلما تقدمنا أبدت الأرض جمالا آكثر مما سبق آن أبدته فرأينا آشجار الأدغال تصبح أعلى وآعلى •

ليلة الأحد ، وآخر منطقة اكتشفها دياز :

وفى الليلة التالية أوقفنا سفننا لأننا كنا قد ابتعدنا كثيرا جدا عن منطقة نهر السمك Rio do Infante التى كانت آخر بقعة يكتشفها بارثولومو دياز •

أثر التيارات المائية فى تقدمنا :

وفى اليوم التالى استمر ابحارنا على طول الساحل بفعل الرياح التى تدفعنا من الخلف حتى قرع ناقوس صلوات المساء ، فاتجهت الرياح الى الشرق فغيرنا اتجاه السفن الى عرض البحر ، ومن ثم رحنا نتقدم تارة فى عرض البحر وتارة أخرى بالقرب من الساحل حتى يوم الخميس قرب مغرب الشمس، الا آن الرياح غيرت اتجاهها مرة آخرى فهبت الى الغرب ، ومن ثم فقد أوقفنا سفننا هذه الليلة على أمل آن نستطلع البر نهارا ونعرف فى أية منطقة نحن ، فلما أشرق الصباح توجهنا للتو الى البر ، وفى الساعة العاشرة وجدنا أنفسنا أبعد عن جزيرة كروز Ilheu Cruz مما كنا نظن بستين فرسخا • وكان هذا بفعل التيارات المائية التى كانت

شديدة جدا فى هذه المنطقة • وفى هذا اليوم نفسه عدنا الى الطريق البحرى الذى كنا نبحر فيه بالفعل والرياح تدفعنا دفعا شديدا وقد استمرت هذه الرياح ثلاثة ايام أو اربعة مما مكننا من التغلب على التيارات المائية التى كنا نخشاها كثيرا مخافة ألا تمكننا من تحقيق الانجاز الذى نسعى لتحقيقه • وابتداء من هذا اليوم كان فضل الله علينا عظيما فرحنا نتقدم دوما فعسى أن تدوم علينا نعمته •

يوم الكرسماس (عيد الميلاد) ٢٥ ديسمبر :

وفى عيد الميلاد الموافق ٢٥ ديسمبر (١٤٩٧) اكتشفنا سبعين فرسخا من الساحل ، وبعد الغداء فى هذا اليوم بينما كنا نثبت الشراع الخفيف وجدنا الدقل (الصارى) مكسورا من أسفل قمته بحوالى قامة (فازوم) وقد اتسع الكسر وقد أصلحناه مستخدمين الشكال الخلفى (الحبل الممتد من أعلى الصارى الى مؤخرة السفينة أو جانبها) ، وذلك بشكل مؤقت حتى نتمكن من اصلاحه اصلاحا تاما فى ميناء آمن • وفى يوم الخميس توقفنا عند الساحل وتزودنا بأسماك كثيرة وعند الغروب واصلنا الابحار • وهنا فقدنا مرسانا فقد قطع الحبل لذا فقد أبحرنا فى عرض البحر دون أن نلامس ميناء فقد أعوزنا ماء الشرب بشدة فكنا نطبخ بماء البحر المالح ولم يتبق معنا ماء للشرب الا كارتيلهو Quartilho (٣٨) •

الخميس ١٠ يناير (١٤٩٨) :

وفى يوم الخميس ١٠ يناير (الصحيح ١١ يناير) رأينا نهرا صغيرا فتوقفنا بعيدا عن الساحل ، وفى اليوم التالى غادرنا السفن وركبنا القوارب للساحل ولاحظنا عددا كبيرا من الزنوج والزنجيات ، ذوى أحجام ضخمة ، وزعيمهم بينهم ، فأمر القائد العام المدعو مارتيم أفونسو Martim Afonso الذى سبق له أن جال فى منطقة المانيكونجو Manicongo فترة طويلة جدا ، أن يذهب للساحل وأن

يصحب معه رجلا آخر ، فاستقبلهما أهل البلاد بكرم ، فأرسل القائد العام لزعيمهم سترة Jacket وسراويل حمراء وغطاء رأس وأساور ، فقال زعيمهم انه مستعد أن يزودنا بكل ما نريده من أرضه عن طيب خاطر ، وقد فهم المدعو مارتيم الفونسو كل ذلك • وقد ذهب مارتيم ألفونسو والرجل الذى معه ــ هذه الليلة ــ مع زعيمهم ليناموا فى أحد منازله (منازل الزعيم الأفريقى) اما نحن فعدنا الى سفننا • وأثناء الطريق ارتدى الزعيم الأفريقى الملابس التى قدمها له القائد العام ، وقال لمن قدموا لاستقباله بسعادة ورضا : « انظروا ماذا أعطونى !!» فصفقوا بأيديهم بطريقة لا وقار فيها • لقد صفقوا ثلاث مرات أو أربع حتى وصلنا للقرية فراح الزعيم يجول فيها فرحا بلباسه الذى قدمه له القائد العام حتى دخل بيته •

وأمر الزعيم الأفريقى باستضافة الرجلين (البرتغاليين) فذهبا معه الى الكرال kraal (أو الزريبة) وأمر لهم بشريد الدخن (الذرة الرفيعة) الذى يوجد منه كثير فى هذه الأراضى ، ودجاجة تشبه دجاج البرتغال • وفى هذه الليلة قدم عند الزعيم الافريقى رجال ونساء كثيرون لرؤية الرجلين البرتغاليين • وفى الصباح ذهب الزعيم الافريقى لرؤيتهما وطلب منهما العودة وأعطاهما دجاجا لتقديمة للقائد العام قائلا انه لابد أن يرى ما قدموه له (من ملابس وأساور) للزعيم الكبير الذى يتبعونه ــ ويبدو أنه يقصد ملك هذه البلاد ، ولما وصل مارتيم ألفونسو والرجل المصاحب له للميناء حيث كانت القوارب ــ كان حولهما مائتا شخص أفريقى أتوا لرؤيتهما •

أرض الناس الطيبين ونهر النحاس :

لقد بدت لنا هذه الأراضى مكتظة بالسكان وبها زعماء كثيرون ونساؤها أكثر من رجالها فاذا أتى الينا عشرون

رجلا كانت تأتى الينا أربعون امرأة • ومساكن هذه البلاد من القش ، اما اسلحتهم فأقواس ضخام جدا ، وسهام ، ورماح نحيلة assagais من حديد ، وبدا لنا ان فى هذه الأراضى نحاسا وافرا فهم يضعون أطواقا من نحاس حول سوقهم واذرعهم وفى شعورهم المجعدة بشدة • وفى هذه الاراضى يوجد ايضا القصدير الذى يستخدمونه فى صناعة (او طلاء) مقابض خناجرهم التى يتخذون لها قرابات (جرابات أو أغماد) من عاج • ويقدر أهل هذه الأراضى الملابس الكتانية تقديرا شديدا فقد أعطونا كثيرا من النحاس مقابل ما نستطيع تقديمه من قمصان كتانية • ويحمل هؤلاء البشر يقطينات ضخمة (قرعا ضخما) يملأونها بمياه البحر المالحة ويصبونها فى حفر فى الأرض ويستخلصون منها الملح • لقد ظللنا خمسة أيام هنا نحصل على الماء الذى يحملونه لنا الى قواربنا ، لكننا لم نأخذ كل ما نريده من ماء فقد أصبحت الرياح مواتية لاستئناف الرحلة • وخلال مدة اقامتنا كنا قد رسونا فى البحر بعيدا عن الساحل • وقد أطلقنا على هذه الأراضى اسم أرض الناس الطيبين Terra da Bao Gentle (the land of the good people) وأطلقنا على النهر اسم نهر النحاس The Rio de Cobre .

أرض القديس روفائيل ونهر بشائر الخير :

وفى يوم الأحد وبينما كنا مستمرين فى الابحار رأينا أرضا منخفضة جدا ، وبعض أشجارها مرتفعة جدا وكثيفة كثافة شديدة كما رأينا مصبا عريضا لنهر ، وقد توقفنا عن الابحار لأنه كان من الضرورى أن نتحقق من الموضع الذى نحن فيه • وذات خميس ليلا دخلنا حيث كانت السفينة بريو Berrio موجودة هناك بالفعل اذ كانت قد دخلت فى اليوم السابق الذى كان بمثابة اليوم الثامن قبل نهاية شهر يناير • وأراضى هذه المنطقة منخفضة جدا ومليئة بالمستنقعات

وبها غابات كثيفة غاصة بالفاكهة من مختلف الأنواع ياكل منها الناس ٠

وأهل هذه المنطقة سود ويتمتعون بتكوين جسدى طيب ويسيرون عراة تقريبا الا من قطعة قماش قطنى صغيرة يغطى الواحد منهم بها عورته ٠ أما الزعماء فيضع الواحد منهم قطعة قماش أكبر حجما ٠ وتبدو الشابات فى هذه المناطق ذوات منظر جميل ، وهن يثقبن شفاههن فى ثلاثة مواضع يزينها بقطع من القصدير اللولبية ٠ وقد سعد هؤلاء الناس بلقيانا كثيرا وقد ركبوا قواربهم الشجرية وأحضروا لنا فى السفن ما لديهم من مؤن ، كما كنا نذهب لقريتهم لجلب الماء العذب ٠

وبعد أن مكثنا هناك يومين أو ثلاثة آتى زعيمان Chiefs من زعماء هذه الأراضى ليريانا ، وكانا متغطرسين للغاية لدرجة أنهما لم يعجبهما أى شىء مما قدمناه لهما ٠ وكان أحد هذين الزعيمين يلبس غطاء رأس (كاب) ذا أهداب من حرير ٠ وكان الزعيم الآخر يلبس غطاء رأس من ساتان أخضر (الساتان قماش حريرى صقيل) ، وكان بصحبتهما شاب كان قد قدم من منطقة أخرى بعيدة ـ كما فهمنا من ايماءاته واشاراته ـ وفهمنا منه انه كان قد رأى سفنا كبيرة كسفننا ، وقد سعدنا كثيرا بأقواله هذه لأن معنى هذا أننا أصبحنا ـ الآن ـ على مقربة من الهدف الذى نزمع الوصول اليه (٣٩) ٠ وقد أمر الزعيمان (الأفريقيان) آنفا الذكر باقامة بعض الأكواخ من فروع الأشجار على طول شاطىء النهر المواجه للسفن ، وقد أقاما فى هذه الأكواخ زهاء سبعة أيام ، وفى كل يوم كانا يرسلان ليقايضانا بما عندهما ليحصلا على الأقمشة الحمراء ، وكانا كلما تعبا من المكوث فى هذه الأكواخ يركبان قواربهما الشجرية ليتنزها فى النهر ٠ لقد مكثنا اثنين وثلاثين يوما عند هذا النهر تزودنا خلالها بالماء ونظفنا السفن وأصلحنا صارى السفينة

رافائيل Rafael ، وهنا سقط كثير من رجالنا مرضى فتورمت أقدامهم وأيديهم وتضخمت لثاهم فغطت أسنانهم حتى أنهم لم يستطيعوا تناول الطعام (٤٠) . وقد وضعنا هنا بادراو أطلقنا عليه اسم بادراو القديس رافائيل Padrao of Sao Rafael نسبة للسفينة التى كانت تحمله (سفينة سانت رافائيل) أما النهر فقد أسموه نهر بشائر الخيرات Rio dos Bons Sinais (المحرر : مصب الزمبيزى) .

السبت ٢٤ فبراير ١٤٩٨ :

لقد غادرنا أرض القديس روفائيل يوم السبت الموافق ٢٤ فبراير ١٤٩٨ فاتجهنا لعرض البحر ، وفى الليلة التالية لم نتخل عن الاتجاه الشرقى ، فابتعدنا عن الساحل الذى كان يسعدنا النظر اليه، وفى يوم الأحد اتخذنا اتجاها شماليا شرقيا ولما دق ناقوس صلاة المساء رأينا ثلاث جزر صغيرة ، اثنتان منهما ذواتا غابات كثيفة [المقصود جزيرة كازورينا وجزيرة ابيدندرون (Casuarina and Epidendron (٤١) أما الجزيرة الثالثة [جزيرة كرون .Crown Is)] (٤٢) فجرداء كما أنها أصغر من الجزيرتين الأخريين ، وبين كل جزيرة وأخرى أربعة فراسخ . وقد توقفنا فى عرض البحر (المحيط) لأننا مررنا بهذه الجزر ليلا ، وفى اليوم التالى استمررنا فى الابحار طوال ستة أيام وكنا نتوقف ليلا . وفى يوم الخميس أول مارس رأينا بعد الظهيرة جزرا ، ولأننا كنا فى الليل فقد غيرنا اتجاهنا للشرق وتوقفنا حتى الصباح ..

★★★

الجمعة ٢ مارس ١٤٩٨ :

وفى صباح الجمعة دخل نيقولاو كولهو Nicolau Coelho خليج هذه الجزر وأخطأ الممر (القناة Channel) ووجد مياها

ضحلة ، وبينما كان يغير اتجاه السفينة نحو السفن الأخرى التي تتبعه رأى قوارب تقترب من ناحية المدينة الكائنة على تلك الجزيرة ، ويحيي من فيها ـ بسرور بالغ ـ قائدنا العام وأخيه ، وتركنا أنفسنا نتجه للشرق لأنه كان يتعين علينا أن نتـوقف ، وكلما تقدمنا تبعونا وأشاروا لنا كي ننتظرهم ، أقبلت القوارب التي تتبعنا لقد كان عددها سبعة قوارب او ثمانية من بينها قوارب شجرية (جذوع شجر محفورة لتصبح قاربا) ، فنفخ رجالها في أبواق معهم وأشاروا لنا بأن نتبعهم ليرشدونا للطريق ان كنا راغبين في الوصول للميناء . وقد دخلوا سـفننا وأكلـوا مما أكلنـاه وشربوا مما شربناه ، وغادروا بعد أن شبعوا . وقد قرر القباطنة دخـول هـذا الخليج لمعرفة أحوال التجارة عند هؤلاء الناس ، وكان عـلى نيقـولاو كولهـو Nicolau Celho أن يذهب أولا بسفينته ليسبر أغوار البحر . لمعـرفة ما اذا كان يمكننـا الدخول ، ولما اقترب نيقـولاو من المدخـل اصطدم وكسر الدفة فعاد للمياه العميقة ، وقد كنت معه ، فأملنا أشرعتنـا وألقينا مراسينا على مرمى سهمين من المدينة .

انهم مسلمون :

وأهل هذه الجزر متوردو الوجنات ، حسنو الخلقة . انهم مسلمون ويتحدثون كالمسلمين (المقصود هنا كالمغاربة (like Moors) وملابسـهم من كتـان رقيق جـدا ومن قطن وبها خطوط كثيرة ملونة . انها ملابس فاخرة ومشغولة ، ويلبسون جميعا فوق رءوسهم أغطية رأس من حرير محـلاة بخيوط ذهبية . وهم تجار وهم يتاجرون مع المسلمين البيض White moors الذين كانت أربـع من سـفنهم راسـية هنا حاملة الذهب والفضة والملابس والقرنفـل والفلفـل والزنجبيل وحلقات (أطواق) فضية محلاة بكثير من اللآلىء واليواقيت وغيرها ، فأهل هذه البلاد يستخدمون كل هـذه البضائع ، وقد فهمنا مما قالوه أن هـذه البضـائع يجلبها

المسلمون الى هنا فيما عدا الذهب ، وآن هذه البضائع متوفرة في البلاد التي نقصدها وآن الأحجار الكريمه واللالىء والبهارات موجودة في هذه البلاد التي نقصدها من رحلتنا — بكميات كبيرة لدرجة انهم لا يتاجرون فيها بل انهم — ببساطة — يملأون منها السلال لفرط توفرها • لقد فهم البحار كل ذلك ، وكان القائد العام قد حمل هذا البحار معه • وكان أسيرا من المسلمين، ولهذا السبب فقد فهم ما قاله أولئك البشر الذين قابلناهم هنا، وأكثر من هذا فقد قال المسلمون الذين قابلناهم في طريقنا أننا سنواجه كثيرا من العقبات المائية Shaols وأننا سنجد مدنا كثيرة على طول الساحل وانتا سنجد جزيرة نصف سكانها مسلمون ونصفهم الآخر مسيحيون لا يكفون عن شن الحرب ضد المسلمين ، وان هذه الجزيرة غنية جدا •

برستر يوحنا :

وأكثر من هذا فقد آخبرونا آن برستر يوحنا Prester John قريب من هناك وأن له موانيء كثيرة على الساحل ، وان سكان هذه الجزيرة تجار أثرياء ولديهم سفن ضخمة ، ولكن برستر جون كان الى الداخل بمسافة بعيدة ولا يمكن الوصول الى برستر جون الا بركوب الجمال • وقد جلب هؤلاء المسلمون الى هنا عبدين مسيحيين هنديين لقد آخبرنا هؤلاء المسلمون بكل ذلك وأكثر ، مما جعلنا في الغاية من السعادة فرحنا نصيح صيحات البهجة ودعونا الرب أن يهبنا الصحة حتى نرى ما نرغب فيه جميعا •

وفي هذا المكان وتلك الجزيرة المسماة موزمبيق Monca biqus (Mozambique) يوجد زعيم يطلق عليه لقب سلطان وهو يشبه نائب ملك ، وقد آتى المرة تلو الأخرى الى سفننا محاطا بحاشيته • وقد اعتاد القبطان آن يطعمه كثيرا جدا وأن يقدم له الهدايا من آغطية الرأس hats والمعاطف التي بها زوائد لتغطية الرأس (برانس) والقلائد

من المرجان · وكان متكبرا جدا فكان يزدرى كل ما يقدم له ، وقد اعتاد أن يطلب اقمشة قرمزية ولم يكن معنا ما طلب فقدمنا له مما فى حوزتنا ·

وذات يوم دعاه القائد العام ليشارك فى تناول كثير من التين والفاكهة المحلاة بالسكر ورجاه أن يزوده باثنين من المرشدين البحريين ليذهبوا معنا · وقد وافق على ذلك شريطة أن نكافئهما فقدم القائد العام لكل منهما ثلاثين متقالا miticals (؟) من الذهب ومعطفين ذوى زوائد لتغطية الرأس (برانس) بشرط انه ابتداء من اليوم الذى تلقيا فيه هذه المكافأة لا يغادران سفننا معا وانما ان غادر أحدهما تحتم على الآخر البقاء وقد رضيا تماما بهذا الشرط · وفى يوم السبت الموافق للعاشر من شهر مارس غادرنا ولكننا توقفنا فى عرض البحر على بعد فرسخ بالقرب من جزيرة لنرتل القداس يوم الأحد وليتمكن الراغبون فى الاعتراف من الاعتراف وتناول العشاء الربانى ·

وقد بقى واحد من المرشدين آنفى الذكر فى الجزيرة ، وبعد توقفنا قمنا بتسليح قاربين استعدادا لاحتمال ذهابنا للبحث عنه ، وقد استقل القائد العام أحد القاربين واستقل نيقولاو كولهو Nicolau Coelho القارب الآخر ، وبينما اتخذ القاربان سبيلهما للبحث عن المرشد (الدليل) البحرى الآخر أقبلت خمسة قوارب أو ستة غاصة بالبشر الذين يحملون أقواسا وسهاما طويلة وتروسا صغيرة وأومأوا للمرشدين أن يعودا للمدينة · ولما رأى القائد العام ذلك حاصر المرشد (الدليل) الذى كان يركب معه فى القارب نفسه وأمر باطلاق المدافع على أولئك الذين يقتربون من قواربنا · أما باولو داجاما Paulo da Gama الذى كان قد بقى مع السفن ليكون قادرا على فعل ما يمكنه عمله ، فانه بمجرد سماع صوت اطلاق المدافع قام برفع أشرعة

السفينة بريو Berrio • ـان المسلمون قد فروا بالفعل عند سماع صوت المدافع ، وزاد قرارهم عندما راوا السفينة بريو ترفع أشرعتها ، ولجأوا للبر قبل أن تلحق بهم ، وعدنا الى مرسانا • وفى يوم الأحد تلونا قداسنا على البر فى ظلال أشجار بستان باسقة ، وبعد انتهينا من القداس عدنا لسفننا وواصلنا الابحار • وكان معنا كثير من الدجاج والماعز والحمام حصلنا عليه من هذه البلاد مقابل قليل من الخرزات الزجاجية الصفراء •

وسفن هذه الأنحاء ضخمة لكنها بلا سطح (ظهر) وهى بدون مسامير وانما مربطة بالحبال ، وينطبق هذا أيضا على قواربهم ، أما أشرعتهم فمن حصير من سعف النخيل palm-matting ، ولدى بحارتهم ابر مغناطيسية جنوية جنوية يوجهون بها سفنهم ، ولديهم ربعيات Quadrants وخرائط بحرية •

النخيـل :

ونخيل هذه الأنحاء (موزمبيق) تثمر فاكهة فى حجم البطيخ وهم يأكلون لب الثمر ، (ما هو موجود بداخلها) ، والثمرة تميل للصفرة ومذاقها كالبندق hazel-nut • ويتوفر الخيار والبطيخ وقد باعونا كميات منهما •

ترحيب بالبرتغاليين فى موزمبيق ظنا أنهم أتراك :

وفى اليوم الذى دخل فيه نيقولاو كولهو Coelho أقبل زعيم هذه الأنحاء الى السفينة وبصحبته خلق كثير فاستضافه وأحسن استقباله وقدم له معطفا أحمر ، فقدم له الزعيم مسبحا أسود الحبات كان يضعه حول عنقه دليل المحبة والمودة وطلب من نيقولاو كولهو قاربا ليعود به فأعطاه له وبعد أن رسا بالقارب أخذ من كان معه الى منزله وطلب

منهم الاقامة عنده (لكنه بعد ذلك أمرهم بالعودة) وأرسل الى نيقولاو كولهو « برشا » من العجوة المخلوطة بالقرنفل وبذور الكمون (؟) Cummin seeds وأرسل بعد ذلك لقائدنا العام كثيرا من الهدايا . لقد فعلوا هذا وهم يظنوننا ــ طوال الوقت ــ أتراكا أو مسلمين من بعض أنحاء العالم ، وقد عرفنا ذلك لأنهم اعتادوا سؤالنا عما اذا كنا قد قدمنا من تركيا وطلبوا منا أن نريهم سهامنا وكتب الشريعة ، وبعد أن علموا أننا مسيحيون أصدروا الأوامر بمحاصرتنا وقتلنا غدرا لكن دليلهم (مرشدهم) المسلم الذى كنا نحمله معنا كشف لنا ما يدبرونه ضدنا (٤٤) .

دليل بحرى مسلم آخر يركب معنا :

وفى يوم الثلاثاء رأينا أرضا تشمخ فوقها تلال عالية خلف رأس (لسان ممتد) وكان فى هذا اللسان غوطة من أشجار متناثرة ولكنها عالية جدا وبدت على الساحل كأشجار الدردار elms ، وقد تبعد هذه الأراضى عن المكان الذى غادرناه أكثر من عشرين فرسخا ، وطوال الثلاثاء والأربعاء عمدنا للابحار بهدوء وفى الليلة التالية اتجهنا لعرض البحر (المحيط) وكانت رياح شرقية خفيفة تهب علينا ولما طلع الفجر وجدنا أننا خلف موزمبيق بأربعة فراسخ . وفى هذا اليوم ظللنا نبحر حتى بعد الظهيرة وبعدها عمدنا الى الراحة بالقرب من الجزيرة التى سبق لنا أن أقمنا فيها قداس الأحد قبل ذلك ، وظللنا فى هذا المكان طوال ثمانية أيام ننتظر الريح المواتية ، وفى منتصف هذه المدة أرسل لنا ملك موزمبيق ليخبرنا انه يريد أن يعقد سلاما معنا وأن نصبح نحن وهو أصدقاء . وكان رسوله لعقد هذا السلام رجلا مسلما أبيض وكان من الأشراف (شريفا Shareef) وكان سكيرا من الطراز الأول . وبينما كنا هنا أتى لنا رجل مسلم ومعه ابنه وركب فى احدى سفننا وقال انه يرغب أن يذهب معنا ،

ما دمنا سنذهب قريبا من مكة (المكرمة) فهو قد آتى من هذه الانحاء (القريبة من مكة) الى موزمبيق كدليل بحرى (مرشد) لاحدى السفن • ولان الرياح لم تكن مواتية لنا ، فقد كان من الضرورى أن ندخل ميناء موزمبيق للتزود بالمياه ، وكان مورد الماء داخل البر وأهل الجزيرة يشربون منه فليس لديهم سواه ، الا الماء المالح •

وفى يوم الخميس دخلنا الميناء آنف الذكر ، ولما حل الليل انزلنا القوارب وفى منتصف الليل ذهب القائد العام ونيقولاو كولهو وعدد منا للبحث عن الماء العذب ، واصطحبنا معنا المرشد (الدليل) المسلم الذى كان أكثر اهتماما بتدبير أمر فراره من مسألة تعريفنا بمورد الماء ، وبذل قصارى جهده لتضليلنا عن موضع هذا المورد • لقد رحنا نجول فى المكان حتى أوشك الصباح فعدنا لسفننا ، وبعد الظهر عدنا مرة أخرى وبصحبتنا المرشد نفسه ولما أصبحنا بالقرب من مورد الماء ظهر عشرون من أهل البلاد على الساحل وراحوا يناوشوننا بالرماح النحيلة التى يحملونها بأيديهم ، وبدا لنا انهم قدموا ليدافعوا عن مورد الماء ، فأمر القائد العام باطلاق ثلاثة مدافع ليعطينا فسحة من الوقت للوصول للساحل ، وحالما نزلنا من القوارب اختبأوا فى الأدغال فأخذنا ماء كثيرا وفقا لرغبتنا ، وعندما عدنا لسفننا كانت الشمس قد جنحت للمغيب ، فوجدنا أن زنجى المرشد (الدليل) جوادى كويمبرا Joao de Coimbra قد هرب •

السبت ٢٤ مارس ١٤٩٨ :

وفى صباح يوم السبت ٢٤ مارس عشية يوم مريم العذراء the day of our lady أتى أحد المسلمين الى سفننا ليقول لنا ان كنا نرغب فى الحصول على الماء فان علينا أن نذهب للحصول عليه وترك لدينا انطباعا أن هناك شيئا ما عند الماء سيضطرنا للرجوع • ولما سمع القائد العام ذلك ، أصر

ـ حالا ـ على أن نذهب الى مورد الماء لنظهر لهم آننا يمكننـا أن نلحق الضرر بهم ان آردنا ذلك • وعلى هذا فقد ذهبنا فجأة للقرية وقواربنا مسلحة • لقد كان المسلمون قد طوقوا المكان بسياج محكم وأوتاد كثيرة حتى آننا لم نكن نستطيع رؤية ما وراءه ، وتحركوا الى حافة الساحل مسلحين برماح نحيلة وتروس صغيرة وسيوف قصيرة وأقواس ومقاليع لقذف الحجارة علينا ، لكن مدافعنا أقنعتهم أن يخلوا الساحل وأن يتحصنوا وراء الأسيجة والمتاريس التى أقاموها ، لكن هذه الأسيجة والحصون كان ضررها بالنسبة لهم أكثر من نفعها • لقد انشغلنا بهم حوالى ثلاث ساعات ، ورآينا رجلين منهم سقطا صريعين ، أحدهما سقط على الساحل والآخر خلف السياج ، وبعد أن تعبنا عدنا لسفننا لتناول غدائنا ، وقد بدءوا فى الهروب ـ فجأة ـ وحملوا أمتعتهم فى قوارب شجرية واستقلوها لتنقلهم لقرية فى الجانب الآخر • وبعد أن أكلنا ذهبنا بالقوارب لنقبض على بعض منهم لنبادلهم بالهنديين المسيحيين اللذين سبق لهما أن أسرا ، والزنجى الذى هرب منا • ولتحقيق هذا الهدف تتبعنا قارب الشريف الذى كان محملا بالبضائع وقاربا آخر كان به أربعة زنوج • وقد استولى باولو دا جاما على هذا القارب الأخير ، أما القارب الآخر المحمل بالبضائع فقد غادروه بمجرد وصولهم للساحل وتركوه هناك •• وقد استولينا عليه وأسرنا الزنوج الذين وجدناهم على الساحل وحملناهم الى سفننا ، وقد وجدنا فى قواربهم Canoes كثيرا من الأقمشة القطنية الرقيقة وسلالا وجرارا فخارية مليئة بالزبد وقوارير زجاجية مليئة بالماء وكتبا فى الشريعة الاسلامية وشللا (بضم الشين) من الخيوط كثيرة وشباكا من القطن أيضا وسلالا كبيرة مليئة بالدخن (بضم الدال وتشديدها) • وقد أعطى القائد العام كل ما حصلنا عليه للبحارة الذين استولوا عليها والذين كانوا برفقته وكذلك للقباطنة الآخرين ـ وذلك فيما عدا الكتب التى احتفظ بها ليطلع عليها الملك • وفى يوم الأحد التالى ذهبنا

لنتزود بالماء • وفي يوم الاثنين ذهبنا في مواجهة المدينة بقارب مسلح ، وتحدث الينا المسلحون من خلف مساكنهم لأنهم لم يجسروا على القدوم للساحل ، وبعد أن أطلقنا المدافع عليهم عدنا الى سفننا • وفى يوم الثلاثاء غادرنا مارين أمام المدينة ثم توقفنا للراحة بالقرب من جزر ساو جورج Sao Jorge منتظرين أن يهبنا الله ريحا مواتية ، وفى يوم الخميس الموافق لليوم التاسع والعشرين من الشهر آنف الذكر غادرنا هذه الجزر •

★★★

الى هنا توقف النص المترجم للانجليزية الذى بين أيدينا لكن المؤكد أن للرحلات بقية •

من تقـــــرير

رحلة القس دوز سانتوس

عن سوفالا ومناطق مصب الزمبيزي

وعن مملكة المونوماتابا



عن قلعة سوفالا

تقع قلعة سوفالا Sofala عند خط العرض ٢٠ر٣٠ جنوبا عند سواحل شرق آفريقيا Ethiopia Eastern وهى قريبة من ساحل المحيط ، وعلى بعد فرسخ — أو أكثر قليلا أو أقرب قليلا — يصب نهر يأتى من اراض مرتفعة ويجرى مئات الفراسخ فى منطقة تسمى موكارانجوا Mocarangua ويمر بمدينة زمباو Zimbàoe التى يتخذها ملك ملك الملوك (الكويتيف Quiteve) مقرا له ، وهو حاكم كل هذه الأنحاء وكل المنطقة حول نهر سوفالا Sofala .ويوجد داخل قلعة سوفالا كنيسة يتبعها ستمائة عضو • ويعمل سكان سوفالا — عادة — فى مجال التجارة •

ويتاجر البرتغاليون مع مانيسا Manica فى المناطق الواقعة أعلى النهر ، وهى مناطق يتوفر بها ذهب كثير ، وتبعد ماسينا ستين فرسخا الى الداخل فى المناطق المرتفعة • ويوجد داخل قلعة سوفالا كنيسة يبلغ عدد المنتمين اليها ستمائة ، ويعمل السكان عادة بالتجارة ، وبعض هذه التجارة مع مانيسا حيث يحصلون على الذهب بمبادلته بالأقمشة والخرز ، وبعضها الآخر مع تجار السفن Captayne وبين السكان فى سوفالا وما حولها ، وثمة تجارة أخرى مع أهل نهر سابيا Sabia وجزر بوسيكاس Ils das Bocicas وغيرها من التجمعات السكانية القريبة من الأنهار ، حيث يحصلون منهم على العاج والبهارات والحبوب ، والعبيد — بأعداد وافرة • ويوجد سكان آخرون من المسلمين على بعد مرمى

كاليفرين Two Caliver Shot من القلعة • وهم فقراء وبؤساء ويعيشون على خدمة البرتغاليين • وتقوم النساء هنا بأعمال الزراعة وتربية الدواجن ، وكذلك تفعل النسوة المسلمات • ويقدم السكان العشر Tithes للكنيسة الدومينيكانية • لقد بنى هذه القلعة بيرو دا نهايا Pero da Nhaya سنة (؟) ١٥٠ بموافقة الزعيم المسلم المحلى كيت زوفى Kit Zufe وهو رجل أعمى العينين ، كما أنه أعمى البصيرة سياسة ودينا وفهما ، فقد ندم موخرا جدا وادرك بعد فوات الاوان خطورة سماحة بهذا ، فقد عاد من سمح لهم اليه فقتلوه • وفى الأزمنة القديمة كان هناك ملوك مجانين صغار — على شاكلة الزعيم المسلم آنف الذكر — على الساحل ، ولم يبق من هؤلاء الملوك الصغار الا عدد قليل لأن القباطنة البرتغاليين حلوا محلهم فى التعامل مع الزعيم الكبير (ملك الملوك) Quiteve King فى هذه الأنحاء •

فاكهة سوفالا وما حولها :

وفى منطقة سوفالا فاكهة كثيرة ، فأشجار الرمان مثمرة طوال العام ، حيث يكون بعض الرمان أخضر ، وبعضه الآخر ناضجا وبعضه مزهرا ، وهناك أيضا أشجار التين التى تثمر تينا أسود طوال العام، وهو تين فى الغاية من الامتياز • أما البرتقال والليمون والعنب فتثمر مرتين فى العام : فى ينساير ويوليسة ، أما ثمار الأناناس والتين الهندى indian figs (٤٦) (ولشجرة التين الهندى فروع تحمل هذا النوع من التين الذى تبلغ ثمرته حجم الخيارة) فيصبح لونها أصفر اذا نضجت ، وهى حلوة المذاق ، وفى بعض الأحيان يرى المرء سبعين تينة هندية من هذا النوع على هيئة عنقود كعنقود العنب ، وقلما يستطيع رجل أن يحمل مثل هذا العنقود من فوق الأرض لفرط ثقله •

وتمتد الأراضى التى ينمو فيها قصب السكر امتدادا هائلا على طول نهر سوفالا ، يعمل بها الكافير Cafres لا لاستخراج السكر (فهم لا يستطيعون ذلك لنقص فى مقدرتهم على الابداع) ، وانما هم يأكلونه ، ويشكل قصب السكر أهم مصدر من مصادر عيشهم ٠

وفى هذه الأنحاء أشجار جوز هند (٤٧) بأعداد كبيرة تنتج مالا يحصى من ثمار جوز الهند والعصير (العصير المستخرج من هذه التمار) ٠ ولديهم كميات هائلة من الجنيا Guinnea والقمح والأرز وكثير من الانهام Inhames (وهو نبات ذو جذر ضخمة جدا ، وأوراقه عريضة ، ومذاق جذوره افضل من البطاطس)، وعندهم ابو فرورة Fitches (★)(؟) وكثير من الحبوب القطانية (٤٨) المختلفة أنواعها ٠

وينمو الياسمين فى الحقول والغابات، وكذلك المانجريكون Mangericones (وهو نبات حلو المذاق جدا) ، ويستخرجون الزيت من الجرجليم Gergelim (؟) فيدقونه بعصى طويلة جدا يصل طولها الى وسط الواحد منهم ثم يصفون الزيت المستخرج ، ويأكلون العلف المتبقى بعد استخراج الزيت ـ بدلا من الزبد ٠ والدجاج هنا لا حصر له وكذلك الخراف ، كما يوجد هنا كثير من الخنازير والماعز والكين Kine (؟) والحيوانات المتوحشة والأيائل والخنازير الوحشية Wild Swines وتباع الدجاجات العشر بتستونين twa testons وفى المناطق الداخلية تباع الست عشرة دجاجة بالسعر نفسه ٠ نفسه ٠ وزيت جوز الهند أنقى من زيت الزيتون ٠ وفى المناطق القريبة من مانيسا Manica تنمو أشجار صغيرة على قمم التلال وبين الصخور وتظل جافة معظم السنة دون أوراق

(★) لم نعثر على المقابل العربى فى المعاجم المتوفرة لدينا وما أوردناه فى المتن مجرد اجتهاد ـ (المترجم) ٠

لكنها تستعيد نضارتها اذا قطع أحد فرعا منها ووضعه في الماء ، ففى غضون عشر ساعات تنبت أوراقه الخضراء ، فاذا ما تم سحبه من الماء فانه سرعان ما يترعرع بالسرعة نفسها التى جف بها • ويقول الكافير Cafres (٤٩) ان فروع هـذه الاشجار حتى لو قطعت منذ عشر سنين ، فانها بمجرد وضعها فى الماء تخضر وتنمو أوراقها • وشرب الماء الذى نقعت فيه هذه الأعشاب يمنع نزف الدم • ويسـمى الكافير هذا الشجر منجودوا Mungodao • وثمة نوع آخر من الأشـجار يسمونه ماتوى Matuui والـكلمة تعنى براز الانسـان ، وله رائحة لا تطاق ، ويوجد هذا الشجر فى الهند أيضا ، وتشبه شجرة الماتوى هذه شجرة الشوك • ويقولون ان فيه علاجا للذبول أو جفاف الجلد Ayre or Blastings (٤٢) ، فان بعض الاشخاص ــ خاصة الأطفـال ــ يجعلون منه عقـودا كعقـود الخـرز يلبسونها ويربطونها حول أذرعهم ملامسة للجلد مباشرة ، وعـلى طـول نهر سوفالا ينمـو ــ فى موضـعين ــ برتقال وليمون ، وهم يجمعـونه ويحملون به القـوارب ويبيعـونه بثمن بخس لا يذكر لسكان القلعة الذين يملأون البراميل والأوانى بعصيرهما ، وهم يملحون هذا الليمون (يخللونه) ويصدرونه للهند فيشتريه الهنود الذين يحبونه جدا فيأكلونه مـع الأرز • والخبز فى سـوفالا من خليط القمـح والأرز ويصنعون الكعك الذى يسمونه موكات Mocates وهو محتمـل عندما يكون سـاخنا ، أما ان كان باردا فان مذاقه يكـون سـيئا • وعادة ما يشرب البرتغاليـون نبيـذ جوز الهنـد palme-wine ، أما نبيذ الكافير فيصنعونه من الذرة Mays ويجعلونه قويا مسكرا جدا •

عن ملك ملوك منطقة سوفالا
وعن عادات غريبة في هذه الأنحاء
وعن البلاط والمحاكم والمدن والقرى ٠

الكويتيف يتزوج بناته وأخواته :

ملك هذه الانحاء مفلفل الشعر ، وهو وثنى لا يعبد شيئا وليس لديه أية فكرة عن الله او الرب God بل انه يعتبر نفسه اله المنطقة التى يحكمها لذا فهو يحظى بالدوقير والتبجيل من أتباعه الذين أقطعهم نظير تقديم خدمات عسكرية Vassals ويطلق على ملك الملوك هذا اسم كويتيف Quiteve وهو ليس اسما شخصيا له أو اسما مقصورا عليه ولكنه لقب ملكى atitle royall ، وهو يحمل هذا اللقب الملكى بمجرد توليه الملك ٠ ويقتنى الكويتيف (ملك الملوك) أكثر من مائة امرأة (زوجة) يحتفظ بهن فى دوره ، ومن بين هذا العدد من النساء ، توجد زوجة واحدة أو زوجتان تحملان ألقاب الأميرات أو تعتبران أميرات ، أما الأخريات فبمثابة محظيات Concubines وكثيرات منهن عماته وخالاته وبنات عماته أو أخواله أو خالاته وأخواته وبناته ، وهو يضاجعهن جميعا بزعم أن ذلك يجعلهم جديرين بوراثة الملك بالاحتفاظ بنقاء دمائهم وصونها من أن تختلط بدماء الآخرين ٠

عندما يموت الكويتيف :

واذا مات الكويتيف (ملك الملوك) لابد أن تموت زوجاته الأساسيات (اللائى يحملن ألقاب الامارة) معه حتى

تؤدين له ما يريد من خدمات في العالم الآخر ، لذا فبمجرد موته تتناول الزوجات الاميرات السم الذى يطلقون عليه الدوكاس Lucasse . ويرث ملك الملوك الجديد ما خلفه ملك الملوك (الكويتيف) المتوفى من نساء ، فلا احد يمكنه ان يتزوج اخت الكويتيف المتوفى أو ابنته سوىالكويتيف الجديد الذى هو غالبا واحد من الابناء الكبار للكويتيف المتوفى من زوجاته الأساسيات (الزوجات الأميرات) واذا لم يكن الابن الاكبر للكويتيف المتوفى جديرا بالملك تولى الابن الذى يليه فاذا لم يكن له ولد آخر ورث آخوه الملك • وعادة ما يختار الكويتيف وريثه أثناء حياته ويدربه على أمور الحكم • وبينما كنت أعيش فى هذه المناطق كان لملك الملوك ـ (الكويتيف) ثلاثة أبناء ومع هذا فقد اختار آخاه ليرثه فى الملك لحكمته ، وقد وافق أبناؤه على هذا الاختيار •

تنصيب الكويتيف الجديد :

وفى اليوم نفسه الذى يموت فيه الكويتيف (ملك الملوك) يتم حمله الى التل فيدفن حيث دفن الملوك السابقون ، وفى بكور اليوم التالى يذهب ملك الملوك الجديد الى منزل ملك الملوك السابق فتستقبله زوجاته ومحظياته ويدخل المنزل بموافقتهن وقبولهن ويجلس مع الزوجة الأساسية (الزوجة الأميرة) لملك الملوك السابق فى الصالة العامة (صالة الاستقبال) حيث كان من سبقه قد تعود الجلوس لسماع الدعاوى القضائية (شكاوى الرعية) وهو مكان مستور بستائر أو مغطى بقطع من قماش فلا يجوز أن يرى أحد ملك الملوك كما لا يجوز لأحد أن يرى احدى نسائه وهى معه • ويقوم ملك الملوك الجديد بارسال موظفيه أو عساكره ليعلنوا فى المدائن والقرى اقامة المهرجانات احتفالا بتنصيب ملك الملوك الجديد الذى شغل الآن المنزل الملكى لملك الملوك السابق ، وأصبح زوجا لنسائه وخليلا لمحظياته ، فيذهب كل أعيان البلاد ونبلاء المدن والقرى الى القصر

الملكى الذى يحفه الحرس بوقار ــ فيدخلون بعد استئذان الحرس الى الصالة الملكية حيث يوجد ملك الملوك ونساؤه · انهم يدخلون جماعات جماعات ، ويتقدمون وهم يزحفون على الأرض وسط الصالة ثم يتحدثون لملك الملوك الجديد مقدمين له فروض الطاعة والولاء دون آن تقع آعينهم عليه أو على نسائه · ويجيب الملك وهو فى خبائه (من وراء حجاب) ويوافق على خدماتهم (يثبتهم فى مناصبهم) ، وبعد ذلك تسحب الستائر ويريهم نفسه فيصفقون بأيديهم ثم يستديرون زاحفين على الأرض ــ كما دخلوا ــ ويعودون من حيث أتوا ، فتدخل مجموعة آخرى ويتكرر المشهد السابق ، وينقضى أغلب اليوم فى هذه الطقوس ، وتعم المهرجانات وتعزف الموسيقا ، ويرقص الناس فى مختلف انحاء المدينة · وفى اليوم التالى يرسل الملك جنوده واعوانه الى سائر انحاء المملكة ليعلنوا للناس أن ملك الملوك سيعين ولى عهده ، وان على الجميع آن يأتوا الى البلاط الملكى ليروه وهو يكسر القوس · وفى بعض الأحيان يكون هناك متنافسون كثيرون وعندئذ يقوم الملك بقبول من ترشحه النساء للقصر الملكى ، فلا أحد يمكنه الدخول دون اذنهن ، ولا آحد يمكنه آن يكون ملكا دون رضاهن ، لذا يعمد كثيرون الى رشوة النساء أو ارضائهن بأية وسيلة أخرى لضمان وقوفهن الى جانبه ·

السداندا يتناول السم ، والنساء يرشحن الملك الجديد :

وبالقرب من مملكة الكويتيف (ملك سوفالا) توجد مملكة أخرى لها قوانين وأعراف وعادات مشابهة ، ويحكم فيها حاكم يطلق عليه اسم السداندا Sedanda ، وفى بعض الأحيان تكون مملكة الكويتيف ومملكة السداندا مجرد مملكة واحدة · وبينما كنت فى سوفالا أصيب السداندا اصابة شديدة بالجذام ، فقام على الفور بتعيين ولى عهده ، وقتل نفسه بتناول السم ، فمن الأمور المعتادة هناك آن الملك اذا أحس بضعف فى بدنه أو أصيب بتشوه أو عاهة فانه يتناول

السم ، لكن على ولى العهد أن يحظى بالقبول لدى نساء الملك ، فاذا لم يستلطفنه استدعين فى الليل ـ سرا ـ أميرا آخر يكون قريبا الى قلوبهن فيقدمنه ويجتمعن حوله فى الصالة الملكية ويوعزن بالاعلان للناس أنه كان وليا للعهد وأصبح ملكا • أما الآخر الذى لم يحظ برضى نساء الملك المتوفى فانه يهرب خوفا على حياته وقد يجمع أعوانا له ويدخل القصر الملكى بالقوة • لكن هذا نادر الحدوث ، ومن الأمور الغريبة ، فالملك الجديد هو من ترضى عنه نساء الملك الراحل ، أما الآخر فليس له الا الهرب وما يكون له أن يرفع راسه بعد ذلك •

وقبل أن يحكم الملك الجديد يرسل لكل الزعماء Chiefs فى مملكته ليأتوا للبلاط ويروه وهو يكسر قوس الملوك •

قتل أعوان الملك السابق :

وفى هذا البلاط جرت عادة قتل بعض الزعماء أو النبلاء Lords الذين يقال انهم كانوا ضروريين لحكم الملك السابق ، وفى هذه الاثناء يعترى الخوف والرعب اولئك الذين هم موضع شك أو الذين يحسون أنهم مكروهون • وهذه العادة تجعل من يظنون أنهم موضع شك يفرون تاركين البلاد •

وقديما كان المطلوب من الملوك أن يشربوا السم عند حدوث أية نكبة خطيرة (أو مصيبة تلم بالبلاد) أو عند اصابتهم بمرض معد ، أو ضعف جنسى أو كساح أو عرج أو ما شابه ذلك أو عند فقدهم لأسنانهم الأمامية أو أى جزء من أبدانهم يشير للنقص • وهم يبررون ذلك بقولهم ان الملك يجب ألا يعتريه نقص ، فاذا ما حدث له ذلك كان من الأشرف له أن يموت ليذهب الى حياة أخرى ، يكون فيها تاما كاملا •

الكويتيف يخرق العرف :

ومع هذا فبينما كنت فى سوفالا كان الكويتيف الذى يحكم على وشك أن يفقد الملك لأنه فقد احدى أسنانه

الأمامية ، لكنه أعلن فى سائر أنحاء المملكة أن احدى أسنانه قد سقطت وأن أسلافه كانوا أغبياء لقتلهم أنفسهم لمثل هذا السبب ، وأنه لن يقتل نفسه لفقـده سـنا من أسنانه وانما سينتظر حتى يوافيه الأجل بشكل طبيعى لأنه يعتقد أن حياته ضرورية للحفاظ على المملكة ضد الأعداء وانه يوصى ذريته بالحذو حذوه •

التصفيق والزحف رمز التذلل والخضوع :

واذا كان لدى أحد الكافير Cafars التماس أو شـكوى ، وكان يود الحديث مع الملك فانه يزحف اليـه ويركع عنـد المدخل ولا ينظر اليه عند الحديث ، وانما عليه أن يصـفق بيديه طوال الوقت ، فالتصفيق هو رمز الخضوع فى هـذه الأنحاء وعندما ينتهى ، عليـه أن يزحف خارجا كما أتى ، فلا يجب أن يدخل أحد الكافير على الملك سائرا على قدميـه ليتحدث للملك ولا أن ينظر اليه عند الحديث ويستثنى من ذلك أصدقاء الملك ، وأفراد أسرته ، أما بالنسبة للبرتغاليين فهم يدخلون الى الملك سائرين على أقدامهم ، ويسجد الواحد منهم وينطرح على أحد جنبيه ولا ينظر اليه وهو يتحدث ، ثم انه يصفق بيديه بعد كل أربع كلمات وفقا للعادة المتبعة • وعلى الكافير والبرتغاليين عـلى سواء أن يقبلوا اسـتضافته بشرب نبيذ المايز (الذرة) Mays ويسمى بومبى Pombe مع أنه مؤذ للمعدة ، ولا يجوز رفض الكرم الملكى ، وعندما يواجه البرتغاليون بعض المتاعب يجبرون عـلى البقـاء فى المدينة دون أن يغادروها مما يكلفهم كثيرا من الوقت والمال •

الكويتيف يزور قبور الأسلاف :

وفى كل شهر سبتمبر يقـوم ملك الملوك (الكويتيف) عند تغير القمر بالذهاب من زمباشى Zimbache ــ مدينته ــ الى التل العالى ليمارس طقوسا جنائزية عنـد قبور أسـلافه (أجداده) المدفونين هناك ويصحبه فى ذلك جماعات كبيرة من المدينة نفسها ، وجماعات أخرى من بعض أنحاء المملكة

يدعون الى هنا لممارسة هذه الطقوس • وحالما يصعد الملك ومن معه الى التل يشرعون فى تناول الطعام ويشربون نبيذهم المعروف بالبمبى Pombe ويستمرون فى الأكل والشرب طوال ثمانية أيام ، ويسمون أحد هذه الأيام بمبيرار Pembcrar نسبة الى لباس خاص أو أغطية خاصة يرتدونها •

وفى هذا المهرجان يلبس الملك والنبلاء أفضل ملابسهم الحريرية والقطنية المزودة بشراريب كثيرة كشراريب السجاد مزخرفة وتتدلى على عيونهم ووجوههم كالشراريب التى تتدلى على جبهة الحصان • وهم يربطون حول الرأس عصابه ribband ويقسمون أنفسهم الى قسمين ويجرى كل قسم فى مواجهة القسم الاخر على اقدامهم وقد حملوا الاقواس والسهام ويقذفون بسهامهم نحو السماء حتى لا تصيب احدا منهم ويظلون فى عدوهم هذا وأعمالهم تلك حتى ينهكهم التعب • أما الذين يستمرون أكثر من غيرهم ويصمدون — بعد أن يكون الآخرون قد خروا من التعب — فانهم يعتبرون أكثر الرجال بسالة وتحملا ، ويكافأون بتقديم جوائز مناسبة • وقد أمر جاسبار دى ملو Gaspar de Mello قبطان سوفالا على أيامى بصناعة عصابة لها شراريب (زوائد) كثيرة من حرير وذهب وأرسلها مع قطع أخرى الى ملك الملوك (الكويتيف) وقد فرح بها كثيرا واعتبرها مفيدة لطقوس يوم البمبيرا •

أيام الحداد بعد أيام البمبيرا :

بعد انتهاء أيام البمبيرا الثمانية وهى أيام مهرجانات وأكل وشرب ، يقضون يومين أو ثلاثة فى حداد ، اذ يلبس الشيطان Devil أحد أفراد المجموعة the Devil enters into one of the Company ويقولون انه ملبوس بروح الملك الراحل والد الملك الحالى الذين يقيمون هذه المراسم على روحه ، وأن روحه قد لبست هذا الشخص لأنه يريد أن يتحدث الى ابنه (الملك الحالى) • عندئذ ينطرح رجل الكافير cafar

الذى لبسته روح الملك المتوفى ـ على الأرض فى حالة اعياء ويبدو مخبولا تائها ، وتتحدث الروح (الشيطان) على لسانه بكل اللغات الغريبة التى تتحدث بها قبائل المملكة ويفهم كثير من الرجال الحاضرين ما يقول • وبعد ذلك يبدأ فى التصرف كملك ، فيتحدث كملك ، ويعلم الكافير Cafars من خلال اشاراته أن أرواح الملوك السابقين قد حضرت • عندئذ يتقدم الملك ومعاونوه الى الشخص الملبوس (الذى لبسته روح الملك المتوفى) ويقدمون له واجبات الاحترام والتوقير •

الشيطان يعظ :

ثم ينسحب كل الموجودين ويتنحون جانبا ويبقى الملك وحده يتحدث بود وصداقة مع روح والده الراحل ويسأله ان كان قد ارتكب خطأ (أى اذا كان الملك الحالى قد ارتكب خطأ) ويسأله هل سينتصر على أعدائه وعما اذا كان سيواجه اضطرابات فى مملكته وغير ذلك مما يود سؤاله عنه ، ويجيب الشيطان Devil (المترجم : المقصود روح الملك المتوفى كما يعتقد أهل البلاد) عن أسئلته ويوجه له النصيحة فيما ينبغى عليه عمله • وقد شهد بعض البرتغاليين ذلك بأنفسهم •

استفتاء الشيطان فى مناطق أخرى من العالم :

وتفيد التقارير آن بعض قبائل الصين والفلبين يستفتون الشيطان على النحو آنف الذكر •

عن الكافير وعقائدهم :

وأعتقد أن أمة الكافير (*) هذه Caphar Nation هى أكثر الأمم وحشية وبربرية فى العالم فهم لا يعبدون الها ولا وثنا وليس لديهم أيقونة Image ولا كنيسة ولا أضحيات ولا رجال دين ، وهم أقسى قلوبا من أن يتحولوا للمسيحية أو الاسلام • وهم يؤمنون بخلود الروح ، ولديهم فكرة مضطربة عن وجود

(*) ربما تحريف لكلمة كافر العربية •

اله عظيم Great God ويسمونه مولونجو Molungo لكنهم لا يتوجهون اليه بالعبادة ولا يدعونه لتحقيق طلباتهم ، فاذا أعوزهم شيء أو حاق بهم جدب توجهوا بالدعاء الى الملك فهم يعتقدون ــ بشدة ــ انه على كل شيء قدير وانه يستطيع ان يحصل على كل شيء من أجداده (اسلافه) الأموات الذين يجتمع بهم · فهم يطلبون من الملك اسقاط المطر اذا كانوا في حاجة اليه لزراعة المحاصيل الموسمية وهم يقدمون له هدايا عظيمة ان طلبوا منه ذلك فيتركهم يعودون الى ديارهم في انتظار ساعة مواتية لتحقيق طلبهم ، ورغم ان امالهم تخيب غالبا فانهم يستمرون في اضاعة وقتهم وأموالهم في مزيد من التماس المطر من الملك حتى يسقط المطر أو يتحقق الطلب الذى طلبوه ظانين آن الحاحهم فى الطلب جعل الملك يلبيه في خاتمة المطاف ·

المهرجانات والمواسم :

ويراعى الكافير اقامة المهرجانات ليريحوا أنفسهم من عناء العمل (فيما عدا الرقص) ، ويحدد الملك مواقيت هذه المهرجانات دون أن يكون من حقهم معرفة آسبابها أو مواعيدها ، ويسمون أيام المهرجانات هذه الموسيمو Musimos وتعنى آن أرواح القديسين (الصالحين) Saints ترحل وأن هذه المهرجانات تكون على شرفها حتى تمنعها من مفارقة البلاد · وفى أحد هذه المهرجانات أمر برتغالى فى زمباشى Zimbache (كان فى طريقه الى مانيسا حيث مناجم الذهب) بذبح بقرة فى بيته لاطعام عبيده ومن معه وعلم الكويتيف (ملك الملوك) من أحد موظفيه آو عساكره ــ المبثوثين بكثرة في المدينة وفى سائر أنحاء المملكة ــ بذلك ، فطلب من البرتغالى أن يتحمل نتيجة عمله وألا يتدخل فيما لا يعنيه مرة أخرى ، وألا ينتهك حرمة مهرجاناته Musimos ولم يجد البرتغالى حلا لهذه المشكلة الا بترك

الذبيحة تنتن أو أن يدفع الامبوفيا Empofia غـــرامة وهى لا تقل عن خمسين ثوبا ، وترك البرتغالى البقرة لتنتن لمدة أيام مما اضطره لترك منزله ، وذهب لمنزل آخـــر ولـــكن الدويتيف لم يسامحه وأجبره على دفع الامبوفيا (الغرامة) .

الحياة الأخرى :

ولا يدرى الكافر شيئا عن خلق العالم أو خلق الانسان، ولا يدرون شيئا عن أن جزاء ارتكاب السوء هو دخول جهنم، وأن جزاء فعل الخير هو دخـــول الفردوس . انهم يؤمنـــون فقط بخلود الروح فى العالم الآخر ، وأنهم سوف يعيشـــون مع نسائهم حياة أفضل من حيـــاتهم الدنيوية هـــذه ، لـــكنهم لا يدرون فى أى مكان سيكون عيشهم فى فردوسهم الأرضى هذا .

الشـــيطان :

وهم يعتقدون فى وجود الشيطان ويســـمونه موســـوكا Musuca وأنه يلحق الضرر بالانسان . ويعقدون مهـــرجانا عند كل ظهور للقمر . ويقولون اذا طلع القمر ان الشمس ذهبت لتنـــام . وهم لا يكتبون ولا يقـــرءون وليس لديهـــم كتب ، وكل تاريخهم ينقل شفاهة (تراثا شفهيا) ويعتقدون أن القرود كانت رجالا ونساء ثم مسخت ، والاسم الدال على القرود فى لغتهم يعنى « الشعب القديم » .

حرس ملك الملوك وحاشيته وألقابه :

وقد تم تعيين مائتى رجل أو ثلاثمائة لحراسة الكويتيف فهم جنوده وأدواته التنفيذية ويسمون انفيكس Infikis وهم يصيحون أثناء سيرهم قائلين . انهاما .. انهـــاما .. وهى كلمة تعنى « لحم .. لحم » ، وللكويتيف صنف آخـــر من

الرجال يصاحبونه وهم المارومب Marombs بالاضافة للمهرجين أو المضحكين Jesters ، وهؤلاء اغانيهم ونثرهم المبتذل فى مدح الملك ، فهم يطلقون عليه رب القمر والشمس وسيد الارض والانهار وقاهر الاعداء ، ويصفونه بالعظمة فى كل شيء ، فهو اللص الكبير ، والساحر العظيم والاسد الهزبر ، ويطلقون عليه سائر القاب الفخامة والعظمة • وعندما يخرج ملك الملوك (الكويتيف) من منزله يتحلق حوله هؤلاء المارومب وهم يصيحون صيحات هائلة • وللملك جوقة تعزف فى الصالة الملكية وعند البوابات ، وهم يحملون آلات موسيقية ويرددون المدائح الملكية •

الآلات الموسيقية :

وأفضل آلاتهم الموسيقية تسمى آمبيرا Ambira وهى تشبه ـ كثيرا ـ الأرغن Organs عندنا ، وهى مصنوعة من البمبيون Pompions (؟) وبعضها ضخم ، وبعضها الآخر نحيل ، والمقصود بهذا الاختلاف أن تصدر أصواتا مختلفة ، ولهذه الأمبيرا فتحة الى الجانب بالقرب من أسفلها ، وهذه الفتحة فى مساحة الشلن ، ولها زجاج فى أسفلها مصنوع من نسيج نحاسى Copweb (؟) رقيق وقوى ، وعلى فتحاتها (فوهاتها) صفوف من المفاتيح الخشبية الرقيقة المشدودة بحبال فى أعلاها ، وهم يعزفون عليها بعصى تشبه عصى الدق على الطبلة ، ولها أزرار أو كرات يبلغ حجم الواحد منها حجم الجوزة ، واذا حركت المفاتيح صدر نغم عذب حلو ، فى قوة الأنغام التى تصدرها آلة العذرية virginal ، وثمة آلة موسيقية أخرى عندهم تسمى أيضا آمبيرا وهى ـ كلها ـ مصنوعة من أسافين حديدية مطروقة بشكل يجعلها مسطحة وضيقة ويبلغ طولها شبرا ومعالجة بالنيران لتصدر أصواتا مختلفة ، ولا يزيد عدد الأسافين (المزامير) عن تسعة

مزامير مصفوفة وأطرافها محاطة بالخشب كرقبة الكمان (الفيول) وهى مجوفة ، ويعزفون عليها بأظافر اصابعهم الابهام • وتصدر هذه الآلة انغاما أفضل من الة العذريه ، ولديهم أبواق من قرون الحيوانات ، ويسمون هذه الابواق باراباراس Paraparas وتصدر أصواتا مرعبة ، ولديهم طبول تصدر أصواتا مختلفة ، وعندما يرسل ملك الملوك (الاويتيف) سفراء ، فانه يرسل معهم رجالا من هذه الفئات الثلاث آنفة الذكر ، يصيحون ويعزفون ويرقصون ويحصلون على مؤنهم عنوة اذا لم يقدمها الناس لهم اختيارا •

العدالة والقضاء :

ولديهم ثلاث طرائق لاثبات البراءة أثناء المحاكمة ، وكلها طرائق مرعبة •

تناول السم لاثبات البراءة (اللوكاس Lucasse) :

والطريقة الأولى تسمى (اللوكاس) وتطلق الكلمة على آنية مليئة بالسم ، يقدمونها للمتهم قائلين انه ان كان مذنبا مات فى الحال ، وان كان بريئا نجا من الموت • وقد يؤدى الرعب بالمذنب الى الاعتراف بالجريمة التى ارتكبها ، أما البرىء فانه يشرب السم بثقة دون أن يلحقه أذى ، وبذلك يسقط عنه الاتهام أما المدعى Plaintiffe الذى اتهمه اتهاما كاذبا فتقسم ممتلكاته وهى : الزوجة والأطفال وأثاث المنزل goods فيأخذ الملك نصفها ، ويأخذ المتهم الذى ثبتت براءته نصفها الآخر •

لعق الحديد المحمى لاثبات البراءة (زوكوا Xoqua)

والطريقة الثانية تسمى (الزوكوا) وهى قطعة حديد تحمى فى النار حتى تصير حمراء ، ويؤمر المتهم بلعقها وهى ساخنة حمراء قائلين له ان النار لن تضره ان كان بريئا

وستحرق لسانه وفمه ان كان مذنبا • وهـذه الطريقة أكثر انتشارا من الطريقة السابقة ويستخدمها الكافير Cafres والمسلمون في هـذه المنـاطق ، بل وحتى بعض المسـيحيين يستخدمون هذه الطريقة ذاتها مع عبيدهم المتهمين بالسرقة، فقد أمر احد المسـيحيين في سـوفالا Sofala بتنفيـذ طريقـة الزوكوا مع عبد اتهم بسرقة عباءة ، وقد لعق العبد الحديد المحمى بالنار ثلاث مرات دون آن يلحق به آذى •

شرب المر (كالانو) :

والطريقة الثالثة يسمونها كالانو ، ويقصد بها آنية من ماء يجعلونه شديد المرارة بعصر أعشاب معينة فيه ويقدمونه للمتهم قائلين انه ان كان بريئا شربه كله جرعة واحدة دون توان ثم يستفرغه كله مرة واحدة دون آن يلحق به آى أذى • وان كان مذنبا فانه لن يكون قادرا على تجرع قطرة واحدة دون غرغرة Choaking and gargeling .

ويشاهد المرء هنا كثيرا من هـذه التجارب (الطـرق) الآنف ذكرها ، فالمذنبون يموتون بتأثير السم أو النار •• الخ والأبرياء تطهر ساحتهم •

اشارة لليهود :

ان ثمة تشابها بين هذه الطرق فى اثبات البراءة وبين الأسلوب الشيطانى الخسيس (القرودى apish) المتعلق بماء الحسـد الملعـون Cursed water of jealousie المذكـور عنـد اليهود (النص : عند موسى عليه السلام in Moses) الذين كانوا ــ ذات يـوم ــ معروفين تماما فى سوفالا وكانت سـمعتهم سيئة •





قــرون الملك

وصف الكافير :

والكافير سود كالزفت as pich وشعورهم مجعدة ، وهم يضفرون شعورهم ضفائر hornes كثيرة ، يراها الرائى مشدودة الى أعلى كعصى المغزل ، ويضعون قطعا رقيقة من الخشب بين خصلات شعورهم لتدعيمها دون شد او ثنى ، وان لم تستخدم هذه الأخشاب فانهم يربطون خصلات شعورهم بعصابة ribband مصنوعة من لحاء بعض النباتات (الاعشاب) . ولحاء هذه النباتات أو الأعشاب عندما يكون غضا فانه يلصق كالغراء ، وبهذا اللحاء يلفون خصلات شعورهم من أدناها الى أعلاها ويجعلون من كل خصلة صغيرة (قرنا) horne ، وهم يفخرون بذلك ويتباهون ، ويعتبرونه دليل الوسامة والشجاعة •

المرأة تفضله بقرون :

ويتباهى بعضهم على بعضهم الآخر بهذه القرون ويسخرون من الرجل الذى لا قرون له قائلين انه كالمرأة ، وحجتهم فى ذلك أنه مادام الذكر من الحيوانات له قرون ، فان الذكر من بنى آدم يجب أن يكون له قرون ، لأن المرأة من بنى الانسان ــ كالأنثى من الحيوانات ــ تحب الذكر ذا القرون •

قرون الملك :

وللملك الملوك (السكويتيف) نسق فريد خاص به فى تنظيم قرونه الأربعة لا يجوز لأحد تقليده فيه ، فأحد قرونه يبلغ الشبر طولا وموقعه فى مقدمة الرأس ، كقرن الحيوان المعروف بوحيد القرن unicorne أما القرون الثلاثة الأخرى فطول الواحد منها نصف شبر ، وأحد هذه القرون الثلاثة على الرقبة والقرنان الآخران ، عند الأذنين وكل هذه القرون منتصبة الى أعلى (منتصبة أو بشكل عمودى) • وبسبب

قرونهم هذه فهم لا يضعون فوق رءوسهم قبعات أو أغطية راس • وكساء الملك والزعماء من قطن رقيق او حرير ، يطوقونه حول ابدانهم ويصل في غالبه الى الركبة ، وثمة لباس اخر اكثر قيمة يسمونه ماشيرا Machiras ينسجه الكافير ويوضع على الاكتاف كالعباءة ، فحيثما ذهبوا تلفعوا بها واحيانا يعلقها الواحد منهم على ذراعه اليسرى ، تاركا اياها تتدلى حتى الأرض • وهذا دليل العظمة والكبرياء ، ويسيرون على هذا النحو الواحد اثر الأخر ، أما بقية أجسادهم فعارية وهم يسيرون حفاة ، أما العوام فيسيرون عراة تماما — بلا خجل — سواء أكانوا رجالا أم نساء وأقصى ما يفعله أحد هؤلاء العوام هو أن يغطى منطقة العورة بجلد قرد سواء كان رجلا أو امرأة ، وهذا الغطاء يشبه مئزر الحداد Smith apron لكن الكافير الذين يتعاملون فى التجارة مع البرتغاليين يلبسون ما يغطيهم حتى الركبة •

الحرف والصيد :

وليس لدى الكافير حرف سوى حرفة الحدادة ، فالحدادون يصنعون الأزاجيات Azagays (٥٠) والمجاريف Spades والأبواب الحديدية ، والخناجر (أنصاف السيوف half-Swords) ، والنساجون الذين ينسجون الملابس القطنية كالماشيرات Machira آنفة الذكر • وتقوم النسوة أيضا بنسيج هذه الماشيرات ، لكن هذا العمل غير ملائم لهن، فالنساء يعملن بشكل أساسى فى عزق الأرض وتخليصها من الأعشاب الضارة ، وبذرها ، أما الرجال فلا يساعدون نساءهم فى هذه الأعمال الشاقة الا قليلا ، فاستخدام الجاروف — على غير المعتاد — هو عمل المرأة عندهم ، كما أن استخدام المغزل هو عمل المرأة عندنا ، وبعض رجالهم يقومون بين الحين والآخر بصيد الحيوانات المتوحشة ، بينما الرجال الآخرون يقضون وقتهم فى الرقص والغناء ، لذلك فهم فقراء •

رحلات الصيد الملكية :

ويقوم ملك الملوك (الكويتيف) برحلات صيد ملكية يصحبه خلالها ثلاثه الاف رجل او اربعه الاف ، في الصحراء القريبة من المدينة ، فيحاصرون كل الحيوانات البريه في ذلك النطاق سواء أكانت نمورا أم أسودا أم فيلة أم جاموسا أم أيائل أم خنازير برية وما الى ذلك ، ويقودونها جميعا ثم يحثون كلابهم عليها ، ويهجمون عليها بسهامهم وازاجاياتهم Azagyes ويقتلون منها ما يستطيعون قتله ، وهم أثناء ذلك قد يقتلون أسدا مع أن هذا محظور في غير هذه المناسبة بأمر ملك الملوك (الكويتيف) الذى يحمل لقب الأسد الكبير • وبعد ذلك يأكلون من لحوم هذه الحيوانات في موضع قتلها وقد غمرتهم السعادة ، ويحملون غالب لحومها لديارهم ليأكل منها الملك وغيره •

البيت والأثاث :

ومنازلهم مستديرة من جذوع أشجار غير معالجة (كما هى في الطبيعة) ومغطاة بالقش كبيوت الريف المغطاة ، وعملية نقل القش الى أسطح المنازل عملية مبهجة لهم • أما أثاثهم فآنية كبيرة يطبخون فيها قمحهم ، وجاروفان لحفر التربة ، وأقواس وسهام وحصيرة ينامون عليها ويعملونها من السمار rushes ، وان كانوا بشكل عام ينامون على الأرض ، وان كان الجو باردا أشعلوا نارا في وسط الدار ، وينامون جميعا بالقرب منها كالقطط • تلك هى الحياة البائسة والبربرية للكافير ــ ان جاز لنا أن نسمى مثل هذه المعيشة حياة •

الطعـــام :

أما طعامهم ــ عادة ــ فهو الميز Mais (كالذرة) والحبوب pulse (ويقصد بها اللوبيا والفاصوليا والفول •• الخ)

والفاكهة وقصب السكر والأسماك ، وكل أنواع لحوم الحيوانات التى يقتلونها فى الصحراء كالقرود والكلاب والقطط والفئران والأفاعى والسحالى ، ويأكلون كذلك التماسيح وكل أنواع اللحوم، ويفضلون بيع الأرز للبرتغاليين بدلا عن أكله اذ يفضلون عليه الميز Mais (الذرة) ، وهم ينقعونه فى الماء بقدر البك (بفتح الباء) pecke أو نحوه لمدة يومين فيزيد حجمه ثم يلقون الماء ويدكونه لساعتين أو ثلاث حتى يجف جيدا فيدقونه فى هاون كبير يصل ارتفاعه الى وسط الرجل ويسمونه كونى Cuni ، أما البرتغاليون فيسمونه بيلانو Pilano • وبعد ذلك يضعون آنية فخارية كبيرة على النار وقد ملأوها الى منتصفها بالماء ، فاذا غلى وضعوا فيه ما يزيد على نصف بك من دقيق الميز (الذرة) ، وهم يضعونه بالتدريج شيئا فشيئا (قليلا قليلا) ، ثم يحركونه (يقلبونه) ، كما نفعل نحن عند اعداد حساء الخضر ، فاذا ما نضج قليلا رفعوه عن النار وأضافوا اليه ما سبق أن أعدوه من دقيق وقلبوهما معا وبذلك يكونون قد أعدوا البمب Pombe ويتركونه ليومين ثم يشربون منه ، وكثيرون منهم لا يأكلون أو يشربون شيئا آخر سواه ، واذا ترك هذا البمب لأربعة أيام أو خمسة أصبح أكثر تخمرا وأصبح له طعم الخل ، وأصبح مسكرا شديد البأس ، ويقولون انه يجعلهم أقوياء •

وفى بعض الأماكن ينمو بعض أنواع القصب reed يكون كل عامين أو ثلاثة كيزانا ضخمة يجمعونها ويخزنونها، وتعد موردا جيدا للغذاء •

البانجو :

وفى كل أنحاء بلاد الكافير (كافراريا (Cafraria، تنمو أعشاب معينة ويقومون أيضا بزراعتها ويسمونها البانجو Bangue يقطعون أوراقها ولحاءها ويتركونهما حتى

يجفا ويدقانهما ليصبحا مسحوقا ، ويأكل الواحد منهم قبضة من هذا المسحوق ويشرب بعده ماء ، ويمكن الاكتفاء بتناول هذا البانجو لعدة ايام ، واذا أكل الواحد منهم كثيرا من هذا المسحوق غاب عن الوعى ، فالبانجو مسكر كالنبيذ ٠

أداة التنبؤ والرجم بالغيب (الشاراتا Charta) :

ويعمد كل هؤلاء الكافير الى أساليب خاصة فى التنبؤ والحساب الغيبى لضمان النجاح اذا شرعوا فى رحلة أو القيام بعمل تجارى أو بذر البذور ، ويفعلون الشىء نفسه اذا أرادوا البحث عن شىء ضائع أو مسروق ، كما يفعلونه **اذا أشكل عليهم فى أى موضوع** ، فاذا ما أخذوا الاشارة (الغيبية) بضمان النجاح مضوا فى اتمام أمورهم ، وهم فى ذلك يفعلون مثلنا عندما نستخدم الانجيل Gospell للغرض نفسه ، وأداة « القرعة » أو « استفتاء الغيب » Lots عبارة عن عصى ملساء ومستديرة ومثقوبة من وسطها ، وهم يحملونها معهم دائما وينظمونها فى خيط يمر من ثقوبها ــ ليستخدموها فى أى أمر يحتارون فيه ٠ وهم يجربون هذه الاعواد عدة مرات (يرمونها كنرد الطاولة Dice) ، وقد يتنبأون من خلال نقراتها ، أو خطوطها على الأرض ٠ وبعض الكافير سحرة كبار (أو عرافون كبار) Great Witches فهم يتحاورون مع الشيطان Devils لذا فهم ينبطحون للشيطان (يسجدون له) ٠ وقد حرم الملك ممارسة السحر والعرافة دون اذنه ، ومن خالف ذلك عوقب بمصادرة ممتلكاته : زوجته وأبنائه وأثاث بيته ، ويتم توزيعها مناصفة بين الملك والمبلغ أى الشخص الذى أخبر الملك بأمره ٠ ومع هذا فان كثيرين يمارسونه سرا ويتمنى الجميع ممارسة هذا العمل ان استطاعوا ٠ ويطبق العقاب نفسه (مصادرة الزوجة والأطفال والأثاث ٠٠) على اللصوص والزناة adulterors ٠ ويعتبر من الأمور المشروعة أن يقتل أى شخص أى فرد من الفئات

الثلاث آنفة الذكر : السحرة واللصوص والزناة ، كما يحق له ان يفعل مع أى فرد من هذه الفئات ما يحلو له ـ ان لم يقتله ـ كأن يبيعه أو أن يتصرف معه كما يشاء على نحو ما يتصرف في ممتلكاته .

شراء الزوجة :

ويدفع الرجل من الكافير لوالد زوجته ملابس جميلة أو غير ذلك وفقا لقدرته . لذا فالرجل الذى أنجب بناتا كثيرات محظوظ وغنى ، واذا كره الرجل من الكافير زوجته أعادها الى أبيها دون أن يسترد ما سبق أن دفعه ، وقد يبيعها أبوها ـ مرة أخرى ـ لزوج آخر .

وليس للزوجة حرية رفض زوجها أو هجره . وتتمثل أفراح الزواج فى الرقص والولائم التى يحضرها الجيران ، وكل ضيف يحضر الحفل يجلب معه هدية : وجبة ، ذرة Mais انهام inhams فراء fitches أو غير ذلك . ومن كان مقتدراً من الكافير تزوج من امرأتين ، لكن قليلين منهم قادرون على الاستمرار فى الاحتفاظ بهما ، أما الأثرياء فلديهم زوجات كثيرات ومع هذا فمن بينهن زوجة واحدة رئيسية ، أما الباقيات فبمثابة وصيفات hand maids ، وبعض الكافير يعيشون كالسوائم wild beasts فهم يذهبون للغابات والبرارى ويتجولون مستمتعين بهذه الأماكن حيث ينطلقون بحريتهم كاملة ثم يستحمون هم وأطفالهم فى نهر أو بحيرة ، ثم يعودون بهم الى منازلهم عراة بدون حتى ما يغطى العورة حيث ينامون على حصير أو بعض القش دون أسرة يتمددون عليها .

عند الموت :

واذا مات أحدهم تجمع أصدقاؤه وجيرانه وأفراد عشيرته لينوحوا عليه طوال اليوم الذى مات فيه ويحملونه فى نفس يوم مماته على حصيرة أو مقعد ويدفنونه بعد لفه بقماش أو

عباءة ان كان يمتلك منهما شيئا ، والا فانهم يدفنونه عاريا في حفرة في الصحراء او مكان خال ويضعون بالقرب منه آنية بها ماء وقليل من الذرة mais ليأكل ويشرب ــ حسب قولهم ــ أثناء رحلته للحياة الأخرى ، ويهيلون عليه التراب ويضعون على موضع الحفرة الحصيرة أو المقعد الذى كان يستخدمه حتى لو كانت هذه الحصيرة أو ذلك المقعد جديدا ، مخافة أن تكون حاملة للموت أو لبعض الأمراض • وتستمر وذلك لأنهم يتشاءمون من لمس حصيرة أو مقعد شخص متوفى فترة الحداد عليه ثمانية أيام من الصباح للظهيرة بالاضافة لساعة أخرى عند الغروب ، وهم يقضون فترة الحداد هذه في الرقص والغناء والتحدث معا ويتحلقون في دائرة وبين الحين والآخر يخرج أحدهم داخل الدائرة ليدور دورة أو دورتين ثم يعود لموضعه مرة أخرى ، وبعد انتهاء الحداد يجلسون في حلقة ويأكلون ويشربون على روح الفقيد ثم يعودون لبيوتهم ، لتقوم جماعة أخرى من عشيرته بالعمل نفسه •

عند المرض :

والكافير قوم قساة لا تراحم بينهم فاذا مرض أحدهم ولم يكن له زوجة ولا عشيرة ولا أصدقاء يهتمون به فلن يقدم له أى واحد من الكافير مساعدة وانما يتركونه يعانى ويموت دون أن يعطف عليه أحد ، رغم أنهم يرونه وهو يفنى من الجوع • وبهذا المرض (الجوع) يموت معظمهم ، ولما يبلغ الأمر منتهاه يقوم أحد الأصدقاء بحمل الرجل البائس الى مكان مهجور لا زرع فيه ويطرحه عند دغل ، أو تحت شجرة ويضع له آنية بها قليل من الماء مع قليل من الذرة mais ليأكل ــ ان استطاع ، ثم يتركه حتى يموت دون أدنى عناية به • ورغم أن بعض الكافير يمرون به ويرونه يتألم ويتوجع فانهم لا يقدمون له آية مساعدة •

فالبربرية عنصر طبيعى فى تكوينهم ، لذا فان بعضهم عندما يحسون أنهم قد مرضوا مرض الموت يطلبون آن يحملوا الى البرية ويتمددون تحت شجرة حيث يمـوتون كمـا تموت السوائم ٠



عن نهر كواما والمناطق القريبة منه وعن الحيوانات والدجاج والأسماك فيها وعن جبال : لوباتا Lupata ومنجاس وروزمبا وسنا وتير وماسابا وعن مملكة مانا موتابا ، وعن أفير Ophir ومناجم الذهب فى فورا ٠

الزمبيزى (٥١) :

نهر كواما Cuama هو النهر الذى يسمونه الزمبيزى Zambeze ، ومنبع هذا النهر موغل فى البر (المناطق الداخليه) ولا يدرى أحد منهم عنه شيئا ، لكنهم يروون عن اسلافهم انه ينبع من بحيرة وسط القارة يخرج منها أنهار أخرى عظيمة تتخذ مجارى مختلفة الى البحر (المحيط) وهم يسمونه نهر الزمبيزى نسبة الى أمة من الكافير تقطن بالقرب من هذه البحيرة تحمل هذا الاسم ٠ وجريان هذا النهر شديد ويبلغ عرضه فى بعض المواضع أكثر من فرسخ ، ويتفرع هذا النهر الى فرعين قبل أن يصب فى البحر (المحيط) بعشرين فرسخا ، وكل فرع من فرعيه فى نفس اتساع المجرى الأصلى each daughter is great as the mother ٠ ويسمى الفرع الرئيسى لوابو Luabo ، وهو بدره ينشعب الى فرعين أحدهما يسمى لوابو القديم Old luabo والثانى كواما القديم Old Cuama أما الفرع الآخر وهو أقل أهمية فيسمى كويليمين Quilimane وهو الذى أسماه فاسكو دى جاما نهر دوز بونا سيناس Dos Bona Sinas وهو فى طريقه للهند ، ويرجع سبب هذه التسمية الى الأخبار السارة التى سمعها فى موزمبيق ومن ثم فقد نصب عمودا حجريا عليه صليب وشارة البرتغال وسمى المنطقة أرض القديس رفائيل (terra de Sancta Raphael)

وللنهر فرع آخر عظيم هو نهر لندى Linde • وعلى هذا فنهر الزمبيزى يصب فى البحر (المحيط) من خلال خمسة أفرع (مصبات) عظيمة جدا •

ويجرى نهر لـوابو Luabo طوال العام أما كويليمين Quilimane فلا يجرى الا شتاء • وهم يبحرون فى نهر لوابو الى الغرب فالشمال الغربى مسافة مائتى فرسخ الى مملكة ساكومبى Sacumbe حيث يصادفون شلالات عظيمة great fall from Rocks ، وبعد هذه الشلالات يسيرون برا عشرين فرسخا الى مملكة شيكوفا Chicova حيث مناجم الفضة ، وبعدها لا يستطيعون الابحار بسبب عنف التيارات المائية ، لكن بعد شيكوفا نجد النهر قابلا للملاحة فيه ، ويحمل نهر لوابو Luabo اسم جزيرة لها الاسم نفسه ، وهذه الجزيرة تفصل بين لوابو القديم فى الجنوب وكواما القديم Old Cuama فى الشمال ، ويبلغ طول هذه الجزيرة خمسة فراسخ ولا يقل عرضها عن ذلك كثيرا ، ويقطنها المسلمون والكافير ، ويتم تفريغ السفن الموزمبيقية الضخمة ذوات الصوارى الثلاثة (ويسمونها بانجايو Pangayes) هنا ، فلا يمكنها الابحار صاعدة فى النهر لضخامة أحجامها ، فهم بعد تفريغ هذه البانجايو يشحنون بضائعهم فى قوارب صغيرة الى قلعة سنا Sena التى تبعد ستين فرسخا • وتسمى المنطقة (الأرض) الواقعة فى الجانب الشمالى بورورو Bororo ، أما الأرض (المنطقة) الواقعة فى الجانب الجنوبى فتسمى بوتونجا Botonga . • وتعترض جزر كثيرة مجرى النهر ، وبعض هذه الجزر واسع جدا وان كانت أفضلها وأكثرها سعة هى جزيرة شنجوما Chingoma عند الحد الذى ينقسم فيه الزمبيزى الى لوابو Luabe ، وكويليمين Quilimane والجزيرة الثانية الجديرة بالذكر هى جزيرة انهانجوما Inhangoma بالقرب من قلعة سنا Sena ، ويبلغ طولها عشرة فراسخ كما يبلغ عرضها فى بعض المواضع فرسخا ونصف الفرسخ ،

ويبحر البرتغاليون هنا نهارا ويلجأون للجزيرة ليلا خوفا من التيارات المائية الشديدة وخوفا من الدخول فى مواضع ضحلة • وقد شغل الكافير Cafres هذه الجزيرة بالصدفة فهم يأتون بقواربهم ويبيعون ما معهم من مؤن بينما يكون النهر فائضا (فى حالة فيضان) مما يجعل المنطقة وافرة الثمر • ففى شهرى مارس وابريل ، تكون الحقول مغمورة بالمياه وتكون الأنهار الأخرى مليئة بالمياه ، ليس نتيجة الأمطار أو ذوبان الجليد وانما يبدو أن هذه المياه قد جلبتها الأنهار من مناطق بعيدة • وفى هذه الفترة تصبح المنطقة غير صحية ويموت كثير من الكافير بسبب الأمراض (★) •

أفراس النهر :

وتعتبر هذه الأنهار بمثابة حديقة حيوان ففيها ما يسمونه أفراس النهر River-horses والواحد منها أضخم من حصانين من خيولنا ، والقدم الخلفية لفرس النهر قصيرة وغليظة ، ولها خمسة مخالب فى كل قدم من قدميها الأماميتين أما قدمها الخلفية ففيها أربعة مخالب ، وقدمها ضخمة كما لو كانت قدم فيل أما الفم فواسع ملىء بالأسنان يمكن ملاحظة أربعة منها ، وطول السن (الناب) يزيد على شبرين ، وينتصب النابان السفليان بشكل عمودى قائم ، أما رأسه فضخم يساوى فى ضخامته رءوس ثلاثة ثيران • وقد رأيت جمجمة أحد هذه الأفراس عند باب دار من دور أحد الكافير • لقد كانت ضخمة جدا حتى ان الرجل الكافيرى جعل ابنه البالغ من العمر سبع سنين أو ثمانى يجلس داخل الفم على الفك السفلى وقام باطباق الفكين ، وولده جالس بالداخل (داخل الجمجمة) • وتعيش أفراس النهر فى جماعات ، ولكنها تتغذى مما ينبته البر من حشائش وفروع أشجار ، وتلحق أضرارا جسيمة بحقول الذرة والأرز بسبب تجوالها فيها

(★) ثم يورد دوز سانتوس الفقرة التالية التى لم نتمكن من ترجمتها :
"... then bred by gro se Ayres, caused by the waters".
(المترجم) •

بأقدامها الضخمة بالاضافة الى أنها تتغذى عليهما (الذرة والأرز) ٠

الغيرة على الاناث :

وهذه الحيوانات غيورة ، ولا يتآلف منها ذكران ، واذا التقى ذكران تعاركا ، وفى بعض الأحيان ، يقتل أحدهما الآخر ، ولكل ذكر مجموعة من الاناث ، فيكون بينهن كالديك بين (البرابر) ويهرب الفرس الضعيف بعيدا عن الفرس الأقوى منه، واذا آنجبتاحدى الاناث آخذت أفراسها الوليدة بعيدا خوفا من أن يقتلها (زوجها) ، وتأخذ الاناث أفراسها الوليدة الى البر فيلعقنها جيدا ، ثم يعدن للنهر ويطعمنها بحليب من أثدائهن تماما كما تفعل أفراسنا ٠ وجلود هذه الأفراس أكثر سماكة من جلود الثيران ، وجميعها ذوات لون واحد هو اللون الرمادى ash-cotoured gray ولمعظمها خط آبيض الى الأسـفل من الوجه وشامة بيضـاء عـلى الجبهة ٠ وكثيرا ما يصيب المرض هذه الحيوانات فتضرب صدورها بأرجلها الأمامية الأياسر (جمع يسرى) بعنف وسرعان ما تسقط ، وأحيانا يقوم الكافير بقتلها ٠ وهـذه الحيوانات (أفراس النهر) جسورة جدا اذا كانت فى الماء ، لكنها على البر تبدو خائفة مرتعدة ، وقد خبرت ذلك بنفسى ٠

صيد أفراس النهر :

ويصطادونهـا بنصب شراك مغطاة بأفـرع الأشـجار والأعشاب بين النهر وحقول الذرة وبذلك يصطادونها بسهولة ويقتلونها ، كما يقومون ــ على النحو نفسه ــ بوضع مصيدة فى حقولهم المزروعة بالذرة ويغطون نصفها بالتراب ، وهذه المصيدة مصنوعة من الحديد ، ويبلغ طولهـا ياردة ، وهى مليئة بالأوتار الحديدية الحادة ، فاذا داس فرس النهر عليها لم يستطع تخليص قدمه منها ، وبالتالى يمـكن قتله ، وهم

يصيدون فرس النهر أيضا وهم فى قواربهم بقذفه بأسياخ حديدية harping irons مشدودة الى القارب بحبال فاذا أصابته سحبوه وقسموا لحمه بينهم ، ويستخدمون للغرض نفسه رماحا طويلة نحيلة assagaya مشدودة أيضا الى القوارب بحبال • وأثناء رحلتى صاعدا فى نهر لوابو Luabo الى سنا sena رأيت عشرة قوارب أو اثنى عشر قاربا مشتركا فى مطاردة أفراس النهر • ويقول الكافير ان الأسد يطارد الأيائل Deers الى النهر ، فتصبح هذه الأيائل عرضة لعدوين : الأسد من البر والتمساح من النهر ، ولما كانت قوة العدوين متقاربة (الأسد والتمساح) فان أحدا منهما لا يفوز بالغنيمة ، فيقبل الكافير فى النهاية فيتعاركون أولا ثم يستولون على الفريسة •

وعلى طول الشاطئين توجد حيوانات مفترسة كثيرة : أسود ونمور ووحيد قرن وأفيال وجاموس برى متوحش جدا وخيول برية تصهل كخيولنا وألوانها حمراء ضاربة للصفرة ، وشعورها كشعور خيولنا ويسميها الكافير امبوفوس Empophos وتوجد حمير خمرية اللون ولها قرون وأقدامها مشقوقة Cloven feet ويسمونها ميروس Merus ولحومها جيدة feel ولديهم ديدان مختلفة وكثير من الحمر الوحشية zepras كالبغال تميل رءوسها ـ كالبغال أيضا ـ نحو رجليها الأماميتين عندما تجرى ، وأقدامها مشقوقة وهى مخططة بخطوط بيضاء يبلغ عرضها عرض اصبعين ، وشعرها ناعم وخفيف •

ويوجد أيضا كثير من النندو Nondos تشبه الأفراس الغالية (الفرنسية) الصغيرة Galician hobbies ذات لون بنى ضارب للصفار وشعورها قصيرة وخفيفة وتبدو ظهورها كأنها مكسورة ، وأرجلها الخلفية أقصر من أرجلها الأمامية •

وتوجد فى هذه الأنحاء الأيائل والأرانب البرية

وسنانير الزباد Civet Cuts والقرود الضخام والقرود المعتادة والقرود المتوحشة fereale monkeys التى تأتى اناثها دورة حيض شهرية كالنساء • وثمة نوع من الكلاب يسمى impumpes وتسير هذه الكلاب فى جماعات بحثا عن الفرائس وهى سريعة الجرى كما أنها عضاضة ، والنوع المتوسط منها curre لا ينبح ، وظهور هذا النوع (الذى لا ينبح) حمراء ولها بطون بيضاء منتفخة ، وهى تفر من الاسان وتركز عضاتها فى الساق والأرداف •

ولديهم نوع من الكائنات Worme (؟!) يسمونها انهازارا Inhazaras وهى فى ضخامة الخنزير وشعرها أسود وخفيف (غير كثيف)، وفى كل قدم من قدميها الخلفيتين خمس أصابع كأصابع البشر ، أما فى قدميها الأساسيتين ، ففى كل قدم أربع أصابع بها مخالب طويلة long nails وتعيش هذه الكائنات (★) فى حفر تحت الأرض لكل منها مدخلان أو ثلاثة •

وهذه الحيوانات (الديدان ؟؟!) تتغذى على النمل فتمد ألسنتها (لسان الواحد منها يبلغ شبرين ونصف الشبر) داخل أعشاش النمل فيلتصق النمل بها ، فتتغذى به • وقد قام احد عبيدنا بقتل أحد هذه الحيوانات وأحضره الى بيتنا وشقه ولم يجد فى معدته روثا ، وانما مجرد ريح winde لذا فان بعض الناس يظنون أنه لا يتغذى الا على الهواء • ولحم هذا الحيوان جيد ، ومذاقه كمذاق لحوم خنازيرنا ــ خاصة أحشاءها ــ لكن بغير دهن ، وأنفه طويل ونحيل ، وآذانه طويلة كآذان البغال ولا شعر له وذيله سميك ومستقيم ويبلغ طوله شبرا ويتخذ شكل المغزل distaffe عند نهايته •

(★) النص like Conie-berries ، ولم نعرف المقصود بهذا الكائن الذى يشبه به ـ (المترجم) •

الســـحالى :

ولديهم سحال ضخام ، رأيت بنفسى احداها وقد بلغت الياردة ونصف الياردة طولا ، وهى فى ضخامة فخذ الرجل ، ولها أسنان ضخمة وحادة ولسانها أسود وله طابع وترى عند طرفه ، ولها عضة سامة لكن سمها غـير مميت (لا يسـبب الموت) •

الأفاعى الطويلة ، والأفاعى الصغيرة :

وتوجد أفاع يبلغ طول الواحدة منها ثمانية عشر شبرا أو عشرين شبرا وهى فى سماكة ساق الانسان ، وهى تقتـل الأغنام والماعز والخنازير والدجاج ، وسـمها قاتل • وفى مملكة بيرى Biri بالقرب من مانيسا Manica توجد آفاع صغيرة يسمونها روسا انهانجا Ruca Inhanga وهى سامة جدا حتى ان الأشجار أو الأعشاب التى تعضها سرعان ما تذبل واذا ماعضت عضة سريعة كائنا حيا ، فان شعره سرعان ما يتساقط وكذلك قرونه وأسنانه وحوافره (أو آظلافه) اللهم الا اذا تداركوه بترياق ضد السم •

تسميم السهام ، ووفاة اللادغ والملدوغ :

ومن سم هذه الأفاعى الصغيرة ـ آنفة الذكر ـ يعـد ملك بيرى Biri معجونا يستخدمه فى تسميم رءوس السهام ، ومن غير المسموح لأحد من رعاياه فعل ذلك • واذا لدغت احدى هذه الأفاعى شخصا من الكافير قبض عليها بيديه وراح يعضها بقسوة ، وبذلك يموت اللادغ (الأفعى) والملدوغ فى يوم واحد •

الأســود والنمور :

والأسود هنا مرعبة جدا ، ولها لون بني داكن وهي غير منقطة ، أما the Ounce فمنقطة وهي أضخم من الكلب السلوقي Grayhold وأطــول منــه ، وتشبه الى حــد كبير قططنا ، وهي تفترس القطط والكلاب والماشية (؟) Cattell لذلك فان الكافير يغلقون الأبواب عليها (الماشية) كل ليلة •

الحشرات Worms :

وهناك مالا يحصى من الحشرات Worms مثل الخنافس التي تضيء ذيولها ليلا وكأنها فحم متوهج ، وهي كثيرة جدا لدرجة انها تغير كل المنطقة • وهناك الفئران ذوات العضات السامة ، ولها رائحة المسك الطيبة ، والخفافيش هنا كبيرة في حجم الحمام ويعمد الكافير لقتلها وشيها وأكلها وللحمها مذاق كمذاق لحم الدجاج • وفي الحقول توجد الســلاحف وهي كبيرة في حجم الترس buckler وهي كثيرة اللحم ودسمة وهم يسلقونها ويجدون مذاق لحمها لذيذا •

ذباب وفراشات :

ويوجد كثير من الفراشــات Zangaons ، وذباب غــريب التركيب وهم يجعلــون الطــين (الطمي) كهيئــة الــكرة ويلصقونها على الجدران أو يصيغون انبوبا فخــاريا مليئــا بالثقوب كهيئة خلية النحــل ، وفي كل ثقب يضعــون دودة صغيرة ، وبعض هـــذه الديدان أبيض ، وبعضها أســود ، وبعضها أخضر ، وبعضها رمادي، أو أي لون آخــر يجدونه، ثم يسدون الثقوب بطمي جـــديد ، فتنجب هــذه الديدان فراشات Zangaons لها سيقان وأجنحة ••

الطيــــور :

والطيور هنا مختلفة أنواعها وبعضها ذوات ألــوان في الغــابة من الجمــال ، وهــم يضعون بعضــها في نــوع من

الأقفاص ، ولبعض الحمام هنا أجنحة ذهبية في الغاية من الجمال ، والأوز هنا على ثلاثة أنواع وبعضه أضخم من الأوز الذى نعرفه في البرتغال وهي سوداء الظهور، بيضاء البطون وذوات علامة حمراء في رءوسها وهذه الزائدة الحمراء يابسة وحادة كأنها قرن (★) •

والكراكى (المفرد : كركى) والبجع ـ وهو فى حجم الديك الرومي ، وهو ـ أى البجع ـ سميك القدمين وقصيرهما ، ويعيش في الأنهار على السمك ، وأغربة (جمع غراب) سود وهي في ضخامة الطواويس ، وأجنحتها سود ، ورقابها ورءوسها غير مغطاة بالريش ، وانما بقشور Dandrow وهى تنتشر على الساحل باحثة عن الجيف •

ملك الطيور :

ولديهم نوع واحد من الطيور يسمونه كروانس Curuances والواحد منها في ضخامة الكركى Crane ، لكنه أجمل ، وظهور هذا النوع مغطاة بريش ناعم كأنه الساتان الأسود، أما صدورها وبطونها فبيض ، ويبلغ طول رقبة الواحد منها شبرين ونصف الشبر مغطاة بريش أبيض ناعم كأنه الحرير ، وعلى رأسه غطاء Cap من ريش أسود جميل جدا (كالريش الأحمر لعصافيرنا الدورية الذهبية gold finches) وفي وسط الرأس ريش طويل (كالعرف) يبلغ طوله في الغالب شبرا ، وهو ريش أبيض ومستقيم وجميل متساو عند ذؤاباته حيث يتخذ بعد ذلك شكلا دائريا كعيش الغراب الأبيض (المشروم) بساق بيضاء • ليصبح كالقبعة عريضة الحافة Sombrero ، ويطلق عليه الكافير اسم ملك الطيور لأن ملوكهم يضعون غطاء لرءوسهم مثل هذه السمبريرو ، ولأنها طيور عظيمة وجميلة •

(★) من الواضح أنه يقصد البط ـ (المترجم) •

طير يخطف قردا :

وقد أخبرني برتغالي في سوفالا Sohala انه بينما كان ذاهبا الى أرض (بلاد) مامبوني Mambone طلبا للعاج في الجانب المواجه لجزر بوسيا Bocias كان معه قرد مقيد بسلسلة الى ثقل يزن عشرة أرطال أو اثني عشر رطلا ، وبينما كان هو بالخارج (أي هذا البرتغالي) أقبل طائر ضخم من آكلة الفرائس ، فقبض بمخالبه على القرد وطار به وبالثقل المربوط اليه (أي المربوط اليه القرد) والتهمه غير بعيد كثيرا عن موضع اختطافه ، وقد وجد البرتغالي فيما بعد السلسلة والثقل الذي كان يربط قرده اليه ٠

وقد أخبرني هذا البرتغالي أن في هذه المنطقة كثيرا من هذه الطيور الضخمة الجارحة تلحق أذى بليغا فتخطف الأطفال والماعز والخنازير والدجاج ٠

آكل العسل :

وهناك نوع من الطيور كطيور الكناري الا أن ذيولها طويلة ، وتعيش على الشمع وتبحث عن خلايا النحل في البراري حيث يوجد كثير منها على الأرض وفي تجاويف الأشجار ، فاذا وجدت احداها طارت الى الطرق العامرة بالناس لتدل الناس المارين عليها ، بأن تطير أمامهم مصفقة بأجنحتها ومتنقلة من غصن الى غصن حتى تصل بالناس العابرين الى موضع الخلية ، والناس الذين يعرفون عادات هذه الطيور يفهمون مرادها يتبعونها ويستخرجون الخلية ويأكلون منها فتشاركهم هذه الطيور في أكل العسل والشمع، والنحل الميت بالتالي ٠ ويسمون هذه الطيور سازو Sazu . وقد رأيت هذه الطيور غالبا ما تدخل كنائسنا وتأكل الشمع وقد أمسك الصبية ببعض منها ٠

الطيور الزارعة :

وثمة نوع آخر من الطيور تعيش على فاكهة تزرعها بنفسها فهى تحفر بمناقيرها الحادة ثقوبا وحفرا فى أعالى الأشجار عند أصول الفروع (حيث تبدأ الفروع فى النمو) وتضع فى هذه الثقوب والحفر بذرة الفاكهة التى تأكلها ، فتنمو وتغطى نفسها بالمادة اللزجة glue ، وتنمو كفروع الشجرة الأصلية ، ومنها تتغذى هذه الطيور (أى من البذور التى زرعتها بنفسها) • وهذه الطيور رمادية وتشبه طائر غراب الزيتون Jack-dawes .

طائر لا يخطو على الأرض :

وثمة طائر يسمى منجا Minga جميل جدا ولونه أخضر وأصفر وهو يشبه الحمامة ، لا يطأ الأرض أبدا فأرجله قصيرة جدا ولا يكاد يميز ويعيش على أشجار الفاكهة فاذا رغب فى الطيران هبط بجناحين غير مفرودين (مبسوطين) ثم يبسطهما فى الهواء واذا أراد الشرب طار على سطح الماء فاذا سقط على الأرض لم يستطع الطيران بعد ذلك ، وهو طائر دسم ومذاق لحمه جيد ، ويقال انها هى طيور السنسو Cincoe التى تعيش على الندى فى المكسيك والتى يصنع من ريشها الجميل أعمال فنية •

الأســماك :

ويزخر نهر سوفالا بأسماك دسمة ولذيذة ، مثل البورى Müllete والنيدل (لشبهه بالابرة) needle والدلافين •• الخ وثمة نوع غريب من الأسماك فى هذه الأنهار يسميه البرتغاليون تريميدور Tremedor ويسميه الكافر ثنتا Thinta ، ووجه غرابته أن الانسان لا يستطيع لمسه وهو على قيد الحياة (أى السمك) فهو يسبب رعدة شديدة لكل

عضو فى الانسان ويجعل مفاصل الانسان تبدو وكأنها متباعدة تكاد تتمزق ، لكنه اذا مات صار كأى سمك آخر ، ولحمه لذيذ ، ويقول الجبليون ان جلد هذا السمك يستخدم فى أعمال السحر ، ويستخدمونه علاجا للصفراء والحصوات المرارية Cholick (؟) بأن يشوى ويجفف ويسحق ويضاف للنبيذ ويشرب • وطول أكبر سمكة من هذا النوع شبران ونصف الشبر ، وجلدها أسود وسميك وغير ناعم •

وثمة سلالة أخرى من الأسماك فى البحيرات تسمى ماسون Macone تشبه الى حد ما سمك الشلق (بتشديد الشين وكسرها ، او بفتح الشين واللام) Lamprey وبه ثقوب عند الرقبة (كذا !) ومنقطة كثعبان البحر • وعندما تجف البحيرات صيفا ، يعمد هذا السمك الى حفر حفر فى القاع يبلغ عمقها شبرا ويضع ذيله فى فمه ويدفن نفسه فى هذه الحفرة ، ويتغذى على أكل ذيله حتى يأتى موسم المطر وتمتلىء البحيرة ، فينمو ذيله من جديد كما كان • ويصطاده الكافير بالحفر فى قيعان البحيرات وكنت غالبا ما اكل منه ، وتمتلىء البحيرات بالمياه شتاء ويأتيها من الانهار نوع واحد من الأسماك يسمونه انكساقوس Enxavos وتعيش الخنازير Hogs على الأكل منه ، أما سمك المميون Mimune فلا يطيقه الا الكافير فهم يأكلونه ويخزنونه ويدخنونه ويدخرونه كمؤونةللعام كله، رغم شدة رائحته•

التمساح :

يبلغ طول التمساح عشرين شبرا وخمسا ، وهو أغلظ من الرجل • جبان على البر ، وعنيف قاس فى الماء • جلده أخضر ومبقع ببقع صفراء داكنة وبقع آخرى رمادية وسوداء وأسنانه مشرشرة ، ولا لسان له ، ويسميه الكافير Goma وتضع الأنثى بيضها على الشاطىء وتدفنه فى الرمال ، فتدفئه الشمس ، وغالبا ما يعثر الكافير على هذا البيض فيكسرنه ويأكلون فريستهم ، وهم يغمسون كل قطعة

في الماء ليساعدهم على بلعها ، وآكباد التماسيح سامة ، لذا فان الكويتيف يمنع تعريضها للألم أثناء الصيد ، ويقول بعض الكافير ان احد فصوص الكبد فقط هو السام ، أما الفصوص (الفلقات) الأخرى فترياق للسم ، وتستلقى هذه التماسيح صباحا ومساء على الرمال وقليل منها يخرج من الماء وقد فغر فمه الذى تجذب رائحته الكريهة الطيور التى تأتى لتلتقط الأقذار حول عينيه ومنخاره ، بل وتنهى عملها بالتقاط الأقذار من بين أسنانه ، وتنمو الطحالب على رءوس التماسيح كبيرة السن ٠

كيف يصطاد الكافير هذه التماسيح ؟

ويصطاد الكافير التمساح عن طريق قطعة لحم كبيرة وضعوا داخلها قطعة خشب كبيرة يبلغ طولها شبرين على ان تكون قطعة الخشب هذه قوية ومستقيمة ، ويغمرون قطعة اللحم وما بداخلها من خشب فى الماء ، فيأتى التمساح ليزدردها ، فيسحب الواحد من الكافير حبله ويجذب التمساح الى الشاطىء وقد فغر فمه ولا يستطيع اغلاقه لأن قطعة اللحم المطعمة بالخشب تقف فى حلقه فلا يستطيع اغلاق فمه ولا يستطيع بالتالى قطع الحبل فيمتلىء جوفه بالماء ، وبهذه الطريقة يسحبه الكافير للشاطىء ويأكلونه ٠

رائحة التماسيح :

وتنبعث من التماسيح رائحة نتنة جدا ، وبينما كنت ومعى آخرون نمر بالنهر من ماروب Maroupe الى سوفالا Sofala ، أغلقنا فتحات أنوفنا لفرط الريح النتن ، فضحك الكافير وقالوا انه ريح التماسيح الذى يعبق الجو فى المنطقة كلها ٠

وعلى طول النهر تنمو آعشاب معينة يسمونها ميكيريرى Miciriri يعتقد الكافير أنهم ان تحصنوا بها عندما يذهبون للصيد فان التماسيح تكون غير قادرة على ايذائهم ، وهم لا يجرءون على النزول للنهر دون استخدام عصير هذه

الأعشاب ، وهم يجربون هذا العصير قبل استخدامه بوضعه على رءوسهم فاذا أصبحوا غير قادرين على مضغ أى شيء كان هذا دليلا على أن العصير جيد ويحقق غرضه ٠

وينمو القطن وقصب السكر على طول النهر وهم يزرعونه بدفنه على كلا جانبي (العقلة) they sow for back and belly وينمو فى هذه المنطقة كثير من الأعشاب الطبية خاصة فى جبل لوباتا Lupata اذ تنمو الدورادينا البرية Wild Douradinha أو أخشاب الجلت Guilt wood والأجيلا البرية Wild Aguila وهى حلوة المذاق جدا ، والكانا فستوليا Cannafistolia وغيرها من الأعشاب التى يطهر الكافير بها أنفسهم ، وثمة أعشاب أخرى لوقف النزيف وأخرى للجروح ، وهى ذوات تأثير واضح ، وثمة أعشاب تثير فى آكلها البهجة والفرح ٠

عن جبال لوباتا :

وتمتد جبال لوباتا هذه من منتصف الطريق من سنا Sena الى تيت Tete لمسافة ستين فرسخا فى اتجاه منابع النهر (للداخل) وتبعد عن البحر تسعة عشر فرسخا ، وهى مرتفعة جدا ، وشديدة الانحدار وممتدة لذا فان الكافير يسمونها العمود الفقرى للعالم ، وقد آلان نهر الزمبيزى قلبها القاسى فجعل من السهل عبورها ، وفى بعض المواضع تبدى هذه الجبال قسوتها بانحدارها العنيف ، وفى مواضع أخرى تملؤها النتوءات beetles معبرة بذلك ــ أى هذه الجبال ــ عن سخطها العابس كما لو كانت تريد أن تسقط نتوءاتها هذه على الأعداء فتسحقهم سحقا ، اذ لن ينجيهم هروبهم الى الشاطيء فالجبال تحفه وتبدى له نظرة غضبى ــ واقتراب الجبل من النهر يجعل التيارات المائية عنيفة كأنها تتصارع لا مع نفسها فحسب وانما أيضا مع القوارب والتجار الذين يسلكون هذا الطريق ، فالكل يحس بالرعب مخافة أن تبتلعهم وبضائعهم ــ أى هذه التيارات ٠

وسنا Sena قلعة من صخر وحجر جيرى ، وهى مزودة بالمدافع وقد عين قائدها قبطان موزمبيق Captayne Mosambique وكان فيها على أيامى ثمانمائة مسيحى خمسهم من البرتغاليين • ويقع جبل شيرى Chiri على بعد سبعة فراسخ أو ثمانية من هنا على الجانب الآخر من النهر ، ويمكن رؤية هذا الجبل ــ لفرط ارتفاعه ــ على بعد عشرين فرسخا ، والجبل والوادى يتسمان بالخصوبة ويأتى الناس من تيت Tete الى سنا لشراء البضائع بالذهب •

أما تيت Tete فهى قلعة حجرية تبعد ستين فرسخا الى الداخل (تجاه منابع النهر) فى مملكة تسمى انهاباز Inhabaze وهى أدنى من مملكة مانامو تابا Manamotapa ، وقد عين كابتنها (قائدها) قبطان موزمبيق • وكان فى تيت Tete على أيامى ستمائة مسيحى ، كان من بينهم أربعون برتغاليا • وهذه المائة فرسخ والعشرون فرسخا قد عرفها البرتغاليون وأبحروا فى النهر صاعدين حتى اكتشفوها ، وبعد هذه المسافة كانوا يسافرون برا للوصول الى البضائع التى يريدونها • والمنطقة خصبة جدا ويبيع البرتغاليون هنا بضائعهم بأثمان باهظة • ومن تيت يتوغلون كثيرا فى مملكة مانامو تابا حتى يصلوا الى أسواق ماسابا Massapa ولوانز Luanze ومانزوفو Manzovo فأهل سنا Sena يمتلكون فى هذه المدن آنفة الذكر مساكن ومخازن •

ماسابا :

وتعتبر ماسابا هى السوق الرئيسية وفيها يقيم القائد (القبطان) البرتغالى الذى يعتمده المانامو تابا ، ويعتبره المانامو تابا بمثابة زوجته الأساسية his great wife وهو لقب يعنى التشريف لحامله كما سبق أن أوضحنا • ويتمتع الكابتن البرتغالى فى ماسابا بكافة السلطات القضائية على الكافير والبرتغاليين على نحو سواء دون أن يكون لهم حق الاستئناف ،

فهو يتمتع بكل السلطات الممنوحة لنواب الملك • ويتمتع القادة (البرتغاليون) الآخرون بالصلاحيات نفسها فى المناطق (الممالك) الأخرى فى هذه الأنحاء • ويقوم القبطان (القائد) البرتغالى فى ماسابا بكل الأعمال التجارية مع المانامو تابا الذى يعد أيضا أحد زبائنه ، ويقدم له ثوبا من بين كل عشرين ثوبا يجرى التعامل فيها ، وبهذه الطريقة أصبحت المنطقة مفتوحة لتجارة البرتغاليين • ولكن بعد ماسابا Massapa وفى المناطق الأقرب للمانامو تابا Manamotapa (٥٢) لا يجوز لأحد أن يمضى بغير ترخيص يمنحه اياه الملك أو القائد البرتغالى (الكابتن أو القبطان) ، والقائد البرتغالى يحمل معه رمحا عموده أسود وله رأس ذهبية كشارة لسلطانه وان الملك قد اعتمد صلاحياته •

ويدفع كابتن (قائد) موزمبيق عند دخوله للمانامو تابا ثلاثة آلاف كروزادو Cruzados مقابل تخويله حق القيادة Captayne-ship لمدة ثلاث سنوات وحق التجارة الحرة فى المنطقة مع رعاياه ، وبذلك يضمن أن يسير محملا بالذهب والا كان عرضة للسلب ، فلم يعرف أبدا أن البرتغاليين تعرضوا لسلب ذهبهم طالما كانوا يحملون ترخيصا من الملك •

ومملكة مانامو تابا Manamotapa تقع فى موكارنجا Mocaranga ، وكانت هذه المملكة فيما مضى امبراطورية مانامو تابيه ، الا أنها الآن قد انقسمت الى أربع ممالك : مملكة المانا موتابا ، ومملكة الكويتيف Quiteve والثالثة هى مملكة السيداندا Sedanda والرابعة هى مملكة الشيكانجا Chicanga • وكان الامبراطور المانامو تابى هو الذى أجرى هذا التقسيم فقد كان غير راغب ــ أو غير قادر ــ على حكم مناطق شاسعة مترامية الأطراف فأرسل ابنه الكويتيف ليحكم المنطقة الممتدة من على نهر سوفالا ، كما أرسل ابنه الثانى سودندا Sodanda للمنطقة التى يجرى بها نهر سابيا Sabia الذى يصل البحر (المحيط) قبل بوكياكاس

Bociacas ، كما أرسل شيكانجا Chicanga ليحكم أرض مانيسا Manica ،ولم يعلم هؤلاء الثلاثة بعد موت أبيهم ــ أخاهم ولى العهد (المستحق لوراثة عرش أبيه) • واستمرت الحرب بينهم ودامت فى ذريتهم • وحتى الآن فان مملكة المانامو تابا أكبر من الممالك الثلاث الأخرى • ويطلق الكافير على هذه الممالك جميعا اسم الموكارانجا Mocaranga لأنها جميعا تتحدث لغة الموكارانجا Mocaranga Tongue .

ويبلغ طول مملكة المانامو تابا ما يزيد على مائتى فرسخ ، أما عرضها فأقل من ذلك بقليل • والى الشمال الغربى تشترك مع مملكة أبوتوس Abutus فى خط حدود (ملك مملكة أبوتوس اسمه أيضا أبوتوس ــ الملك والمملكة لهما اسم واحد) ويقولون ان مملكة أبوتوس هذه تمتد داخل القارة حتى حدود أنجولا • وقد رأيت فى سوفالا Sofala بضائع اشتراها البرتغاليون فى مانيسا Manica كان الكافير قد جلبوها من أبوتوا Abutua وكانت هذه البضائع بدورها قد تم جلبها من البرتغال عن طريق أنجولا • وفى مملكة أبوتوا Abutua يوجد ذهب كثير من نوعية راقية، لكن لبعد مناجمه عن البرتغال فان البحث عن الذهب فيها قليل • وفى شرق مانامو تابا حيث نهر الزمبيزى الذى يسميه المانامو تابيون باسم امباندو Embando توجد ثورة ضد الملك لأنهم يقولون ان الملك يجب أن يحكم ضفتى النهر حتى لا يتمكن أعداؤه من العبور • وفى الجنوب الغربى (الصحيح الجنوب الشرقى ــ ناشر النص الانجليزى) تمتد هذه المملكة حتى المحيط وتمتد داخله بلسان تبلغ مساحته عشرة فراسخ أو اثنى عشر فرسخا من نهر لوابو Luabo الى تاندانكولو Tandanculo • وبقية الأرض الى الجنوب من نهر انهانابين Inhanabane مقسمة بين الممالك الثلاث التى يعمها التمرد كما يقال • ومن تندانكولو Tendanculo الى سوفالا Sofala يمتد حكم الكويتيف والى الجنوب من ذلك توجد مملكة سابيا Sabia التى يحكمها سيدانيا والذى

يعتبر سيدا أيضا لبلاد بوتونجا Botonga الى منطقة انهامبين Inhàmbane ، وتوجد مملكة ماسينا Manica التى يحكمها شيكانجا Chicanga بين المملكتين عند أطرافهما وهى تبعد عن البحر المحيط من ناحية الشمال الغربى بضع مئات من الفراسخ (المقصود الشمال الغربى لمملكته) . والى الشمال من مانيسا Manica توجد مملكة أبوتوس Abutus والى الشمال الشرقى توجد المانا موتابا Manamotapa والى الجنوب يوجد ملك اسمه بيرى Biri . وهؤلاء الملوك الثلاثة المتمردون لهم شأن كبير ، الا أن الكويتيف هو أعظمهم وأغناهم لتجارته مع البرتغاليين فى الأقمشة والخامات والخرز (ويعد الخرز ثروة بالنسبة للكافير) كما أن شعبه هو الأقوى بين الموكارانجا Mocarangas والأكثر خبرة فى استخدام الرماح والسهام والأقواس .

وبالقرب من ماسابا Massapa يوجد تل عظيم يسمى فورا Fura ومنه يمكن تمييز جانب كبير من مملكة ماناموتابا ، لذا فانه ليس من الصعب أن يصل اليه أى برتغالى ، لذا فليس هناك مبرر فى أن يطمع البرتغاليون فى هذه المملكة أو مناجمها ما دامت متاحة لهم .

مبان غامضة فوق تلال فورا

هل هى تلال أوفير Ophir التى أشارت لها التوراة ؟ :

وفوق قمة تل فورا لا تزال ظاهرة للعيان بقايا أسوار قديمة وآثار خرائب من أحجار جيرية وصخور مما يشير الى وجود مبان قوية فى وقت مضى وهو أمر غير مألوف فى كل بلاد الكافير (كافراريا) فحتى بيوت الملوك مشيدة من أخشاب وطين ومغطاة بقش . وأهل البلاد خصوصا من المسلمين يروون عن أجدادهم أن هذه المساكن الحجرية كانت لملكة سبأ Saba التى نقلت كثيرا من الذهب من هنا وحملته السفن على طول ساحل شرق أفريقيا ومن ثم الى البحر الأحمر .

ويقول آخرون ان هذه المباني كانت تخص سليمان (عليه السلام) وأن تلال فورا Fura أو أفورا Afura هذه ليست سوى أفير Ophir (التى أشارت اليها التوراة) ، وفورا أو أوفيرا لا يبعد كثيرا من ناحية اللفظ عن أوفير رغم مرور هـذا الزمن الطـويل . وبالفعـل فان حـول هـذا الجبـل ذهبا وافرا ومن نوعية جيدة ..

وفى كل منـاطق مانا موتابا Manamotapa أو فى غالب مناطقها على الأقل توجد مناجم ذهب كثيرة خاصة فى شيرورو Chiroro حيث يوجد أكبر كمية منه وأجـود أنـواعه . وهم يجمعونه للكويتيف ، ويحكم بالموت على أى مسلم Moore ان اكتشف منجما وأخذ ذهبا لنفسه ، واذا اكتشف أحدهم منجما للذهب بالصدفة فان عليه أن يصـيح بأعـلى صـوته حتى يسمعه أحد الكافر ويأتى اليه ، ليؤكد له أنه لم يأخذ شيئا من الذهب لنفسه ، وعليهما (المكتشف والشاهد) أن يغطيا المنجم بالتراب وأن يعلماه بغصن يغرسـانه عليـه كعلامة تحذير للكافر الآخرين ألا يقتربوا من هـذا الموضع لأنهم اذا اقتربوا فقدوا حياتهم رغم عدم وجود بينة عـلى أنهم أخذوا من الذهب شيئا . وهذه الصرامة الشديدة جعلت مناجم الذهب بعيـدة عن علم البرتغاليين ، فأى تطفـل قد يؤدى الى طردهم من المنطقة .

عن المانامو تابا Manamotapa

عاداته ورعاياه

ورغم أن المانامو تابا أعظم من هـؤلاء الثـلاثة آنفى الذكر ، فانه لا يتبعه ملوك آخرون أو حكام مرتبطـون به بضرورة دفع عشور أو ما شابه ذلك ، كل ما فى الأمر أن بعض رعاياه يطلق عليهم انسوس Encosses أوفيموس Fumos وهم بمثابة سادة عظماء Great Lords ولكل منهم ـ بدوره ـ رعايا مقيمـون مسـتأجرون Tenant Subjects لذا فان المعلومات التى قدمها بوتيرو Botero ، وجسمان Gusman وأوسـوريوس Osorius معلومات خاطئة عنـدما اعتبروا مناطق ساحلية شاسعة تخضع لحكم ملوك تابعين للمانامو تابا Manamotapa فأنا أشك فى وجود تبعية كالتى أشاروا اليها ، أو أن ذلك هو الوضع القائم الآن ـ على الأقل • أما فيليب بيجافتا Philip pigafeita فقد حصل بدوره من خلال علاقاته مـع لـوبيز Lopez على معلومات خاطئـة عن هـذا الساحل وتلك الممالك ، وراح يقص علينا حـكايات طويلة عن الأمازونيـات Amazones مما لا وجـود له هنا الآن ولا كان له وجود فى زمن مضى • وقد حكوا أيضا عن رايات (أو شارات) ملكية Royall Ensignes : مسـحاة مـن ذهب برأس من العاج اشارة الى أهميـة الزراعة وضرورة العناية بها ، وسهمان يرمزان الى العـدالة التى يصر عـلى تحقيقها ، وأنه يكون مصـحوبا دائما بالجنـود ، لـكن كل ما سمعوه كان خداعا ، وبالتالى فان المعلومات التى قدموها

هى معلومات خادعة • فبالنسبة للسهام والأقواس فهى من الأشياء المعتادة عند الكافير كما هى عند البرتغاليين ، أما بالنسبة للسيوف فلا أحد منهم يخرج من داره دون سيف وينطبق الشيء نفسه على المانامو تابا Manamopata فهو يحمل فى يده القوس والسهام وكذلك يفعل الكافير المصاحبون له ، فتلك عادة كل الناس وليست قصرا على المحاربين وأمامه (أى أمام المانامو تابا) رجل من الكافير يحمل طبلة ضخمة يدق عليها دلالة على أن الملك موجود • وعندما لا يحمل المانامو باتا قوسه فان عسكريا (ضابطا) يطلق عليه اسم ماسكوريرا Mascorira يقوم بحمله نيابة عنه ، بينما يحمل الملك رمحا طويلا نحيلا Azagay من خشب أسود وله رأس من ذهب كالرأس الحديدى للرمح أو ثلاث قطع من الخشب يطلقون عليها فيمبوس Fimbos يبلغ طول القطعة منها شبرين ونصف الشبر وهى مزخرفة ونحيلة •

وعندما يتحدث (أى المانامو تابا) مع رجل من الكافير محكوم عليه بالموت فانه يترك احدى هذه الأخشاب (الفيمبوس) لتسقط ، فيقوم مسئول التنفيذ بالتقاطها وقتل المحكوم عليه بالرمح ، وهكذا يلاقى المذنب حتفه •

وللمانامو تابا نساء كثيرات ، والمرأة الأساسية فيهن تسمى المازاريرا Mazarira وهى تحظى باحترام وتوقير أكثر من الأخريات ، وهى أخته على الحقيقة • وهى صديقة عظيمة للبرتغاليين فعندما يقدم البرتغاليون الكوروا Curua للملك يقدمون لها هدية من قماش ، ولا يستطيع أى شخص أن يتحدث الى الملك أو زوجته الرئيسية دون أن يقدم هدية (دون أن يقدم بين يدى نجواه هدية)(٥٣) ، أما البرتغاليون فيقدمون الخرز ، وأما الكافير فيقدمون Kine أو الماعز أو الملابس واذا لم يكونوا قادرين على تقديم شيء من هذا القبيل قدموا جوالا مليئا بالتراب دلالة الخضوع أو حزمة حطب أو قش لاستخدامها (الأتربة والحطب والقش) فى ترميم أسقف منازل الملك • فكل أسقف منازل كافراريا (بلاد الكافير) Cafraria مسقوفة •

والماناموتابا الحاكم الآن يسمى مامبو Mambo ، وقد اعتاد أفراد رعيته أن يقسموا بحياته قائلين Xè Mambo وعندما يتحدثون اليه يقولون Xè Dico وهو قول يعنى يا صاحب العظمة • وأطفال الملك يسمون مانامبو Manambo وقد أذن لرجال ديننا المسيحى بأن يحولوا الناس للمسيحية وأن يبنوا الكنائس ، وقد تم بناء ثلاث كنائس بالفعل فى ماسابا Massapa ولوانز Luanze وبوكوتو Bucutu ويعيش عدد كبير من البرتغاليين فى هذه المناطق آنفة الذكر •

وهم هنا يتحدثون بلغة الموكارانجا Mocaranga tongue وهى أفضل لغات الكافير ، فبينما نجد المسلمين الأفريقيين أو القادمين من شبه الجزيرة العربية يتقعرون فى حديثهم (يسحبون الكلمات من حلوقهم) كما لو كانوا يتقيأون فاننا نجد المتحدثين بلغة الموكارانجا ينطقونها من أطراف ألسنتهم وشفاههم ، وبذا ينطقون كلمات كثيرة فى صوت كالصفير ، وتبلغ لغتهم حدا كبيرا من الأناقة كما سمعتها من حاشية الكويتيف Quiteve ومن الماناموتابا Manamotapa عندما تحدث • ويشيع فى لغتهم التشبيه والاستعارة وهى تشبيهات واستعارات تتناسب مع أغراضهم •

ويضع الماناموتابا ــ وكذلك كل فرد من أفراد رعيته ــ جوهرة بيضاء فى مقدمة الرأس ــ وللماناموتابا جوهرة أخرى عظيمة على صدره ، ويسمون هذه الجواهر أندوروز Andoros ، ويكره الكويتيف Quetive هذه الجواهر باعتبارها تميز الماناموتابا ورعيته • ولا يقص الماناموتابيون شيئا من شعورهم أو لحاهم ومع هذا فقليلون منهم ذوو لحى طويلة كثة ، ويرجع ذلك الى أن شعورهم بطيئة النمو ، ولا تشيب شعورهم حتى اذا بلغوا من العمر عتيا • وبشكل عام فان الواحد منهم يبلغ عمره التسعين عاما أو المائة • وهم يستخدمون العرافة والكهانة Auguries and Divinations ويعقدون اجتماعات مع الشياطين Devils التى تكذب عليهم

وتهيمن على تصرفاتهم • ويقولون ان للمانا موتابا منزلا يشنق فيه المدانين ويعلقهم ويجمع ما يتساقط منهم من ماء فى آنية ويتركهم حتى يجفوا وتكف جثثهم عن انزال السوائل ثم يدفنهم بشكل جماعى، ويقولون انه يصنع من هذه السوائل المتساقطة حجابا (أو طلسما Oyntment) ضد السحر ، ولضمان العمر الطويل أيضا • ولديهم خرافات آخرى كثيرة •

وقد أرسل دوم جورج منيسيز Dom George Meneses الى المانا موتابا كلبا سلوقيا grey hound جميلا ، وقد أحبه المانا موتابا حبا وقربه اليه وأوصى انه اذا مات (أى المانا موتابا) قتلوا هذا الكلب بالاضافة لخروف صغير كان قد أشرف على تربيته بنفسه ــ ودفنهما معه ليخدماه فى العالم الآخر • وقد تم تنفيذ ذلك بالفعل ، وتناولت الملكة (زوجته) السم (وفقا للتقاليد المتبعة)لتخدمه هى الأخرى فى العالم الآخر ، ومعظم عادات رعايا المانا موتابا هى نفسها العادات التى ذكرناها آنفا عند الحديث عن الكويتيف ، فلا داعى لتكرارها •

التعليقـــات

(١) Eric Axilon (Co.) South African explorers, Selected and introduced by Eric Axilon. London, 1854.

(٢) من ذلك قانون صدر سنة ١٥٠٤ يحرم حمـل الخرائط التى تشير الى طريق الملاحة جنوبى الكنغو الى الهند · شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ، الأنجلو ، ١٩٨٠ ط ٢ · ص ١٧٦ ·

عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى أفريقيا · القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٧١ ·

(٣) Eric, op. cit., p. 1.
وكان اسمه المتداول بين الناس هو دور مانويل · (المترجم)

(٤) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الاسلام · ص ٢٣٩ ·

(٥) روم لاندو : الاسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ ·

(٦) انظر ص ٤٤ من هذه الترجمة ·

(٧) يمكن معرفة مزيد من التفاصيل عن محاولة كثلكة الحبشة والقضاء على الأورثوذكسية الشرقية فى : شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها · ص ١٨٠ ·

(٨) بالنسبة للتحالفات فى هذه الفترة ، نجدها تخالف تماما خرافة برستر جون فقد تحالف البنادقة مع المماليك ضد البرتغاليين ، فاشتركوا معا فى معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى ، حقيقة أن البرتغال قد انتصرت عليهم انتصارا حاسما ، لكن ذلك لم يكن بمساعدة برستر جـون ، وانما لأسباب علمية موضوعية ممثلة فى تفوق الأسطول البرتغالى ·

(٩) بعد الوصول للهند وتأكد القوى الأوربية أو على الأقل تأكد للعامة من الناس خرافة برستر جون ، لم تعدم المؤسسات التى توجه

العقول بالخرافة والنصوص القديمة حيلة ، فنحن نجد رحالة آخر يعمل لحساب البرتغال فى الفترة ذاتها تقريبا (١٥٠٣ ـ ١٥٠٩) يحاول أن يقنع أهل الهند أن أجراس الكنائس ـ التى لا يرون من يقرعها لأنه كما هو معلوم يكون فى موضع آخر ويجذب الحبال التى تحرك الأجراس ـ تقرع بمفردها دون مساعدة من أحد بفعل قوى غيبية ، بل ويكتب لقرائه الأوربيين أن الاله (سبحانه) قد تجلى أو ظهر متجسدا فى الهند ليحارب مع البرتغاليين ، وبطبيعة الحال ، فان المثقفين من مختلف الأديان لا يقبلون مثل هذا الكلام بارتياح ٠

راجع ترجمتنا لرحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى العدد ١٣٤ ، ١٩٩٤ ٠

(١٠) لدينا مثال صارخ على هذا من كتب الرحالة ايضا ، فقد زار الرحالة الشهير بوركهارت منطقة الحجاز فى الفترة من ١٥ يوليو ١٨١٤ الى ٢٥ مايو ١٨١٥ وقد رصد شعور المسلمين فى هذه المنطقة وغيرها ازاء الوجود البريطانى فى الهند ٠ وكان شعورا معاديا بطبيعة الحال ، وكان المسلمون فى الحجاز يقولون « الكافر فى الهند » أو « الكفرة فى الهند » وهم يقصدون الانجليز ، فكانت كلمة كافر بما تحمله من مضامين الكراهية تعنى الانجليزى ، بل وكان هناك اتجاه لشن حرب جهاد ضد الانجليز ٠

وبعد أقل من نصف قرن نجد رحالة آخر هو رتشارد بيرتون يزور المنطقة نفسها وهى الحجاز سنة ١٨٥٣ وقد رصد بيرتون الشعور فى هذه المنطقة ازاء الانجليز فى الهند ٠ ويعجب الانسان من هذا التحول البعيد المدى ، فقد سال واحد من أهل الحجاز الحاج عبد الله (بيرتون) عن أوضاع « اخواننا الانجليز » فى الهند ، فلما أكد له بيرتون (الحاج عبد الله) أن أوضاعهم مستقرة قال الرجل : « الحمد لله » ٠ ويفسر بيرتون ذلك بأن هناك رواية اسلامية شاعت فى هذه المنطقة (الحجاز) ومنطقة البحر المتوسط مؤداها أن الانجليز أرسلوا للرسول صلى الله عليه وسلم مبعوثا يقول ان الانجليز يريدون ارسال وفد لرسول الله للدخول فى الاسلام ، ووافق الرسول وتم ارسال الوفد ولكنه وصل بعد وفاته (صلى الله عليه وسلم) فالانجليز وان كانوا لم يدخلوا الاسلام الا أنهم يحترمون النبى (صلى الله عليه وسلم) ويجلونه ولو أن الوفد وصل أثناء حياته لدخلت انجلترا فى الاسلام ٠ ان الغرض السياسى واضح من الرواية ٠ والمسألة من الذى يبث مثل هذه الأقوال ؟ ويؤكد لنا بيرتون أن هذه الأقوال كانت شائعة بين المسلمين فى منطقة البحر المتوسط وفى الحجاز ٠ انها المنافسة الأوربية لكسب الرأى العام فى العالم الاسلامى ٠

وكان كاتب هذه السطور يسمع من بعض الفلاحين كبار السن فى الستينات أن الانجليز من أحفاد الحسين رضى الله عنه ، ولا ينتظر منا القارىء بطبيعة الحال أن نفند ذلك ، وانما نريد أن نثير مسألة أن بعض الجهات تبث أو تثير بعض الأفكار الغيبية رغم بعدها عن كل منطق وحقيقة الا أنها تؤثر على نحو أو آخر فى الرأى العام · ويبقى القول ان تاريخ الأفكار يعتبر فرعا مهما من الدراسات التاريخية لم يلق الاهتمام الكافى ·

- عن الرأى العام ضد الانجليز فى الهند فى مطلع القرن التاسع عشر راجع : رحلات فى شبه الجزيرة العربية تاليف جون لويس بوركهارت ، ترجمة عبد العزيز الهلابى وعبد الرحمن الشيخ بيروت ، دار الرسالة ، ١٩٩٢ ·

- عن الرأى العام لصالح الانجليز فى منتصف القرن التاسع عشر راجع :

Burton, Richard : A pilgrimage to Al-Madina & Mecca. Vol. 2.

ومما يذكر أن الترجمة الكاملة لهذه الرحلة المهمة تحت الطبع فى الهيئة المصرية العامة للكتاب · (ترجمة د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ ـ سلسلة الألف كتاب الثانى) ·

(١١) Eric Axilon: South African explorers, London, 1954, p. 1.

(١٢) شوقى الجمل : تاريخ كشف آفريقيا واستعمارها ، صص ١٦٥ـ١٦٦ ·

(١٣) ورد فى « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » وهو عن تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى فى آخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر » تاليف قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى (٩١٧ ـ ٩٩٠ هـ) أنه « وقع فى أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح ، دخول الفرتقال (المقصود البرتغال) اللعين ، من طائفة الافرنج الملاعين ، الى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة فى البحر ويلجون فى الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر (بضم القاف وتسكين الميم جمع أقمر أى أبيض) ، وهى مادة أصل بحر النيل ، ويصلون الى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل ، فى مضيق : أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر فيه سفائنهم وتنكسر ولا ينجو أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند الى أن خلص منهم غراب (سفينة) الى الهند ، فلا زالوا يتوصلون الى

معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر يقال له احمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له (الى ملندى) وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا فى بحر الهند ٠٠٠ » ٠

ويحتاج هذا النص لبعض التوضيحات :

- المقصود بالفرتقال هو البرتغال الدولة المعروفة ، ونعتقد أن هناك خطأ طباعيا فى كتابتها بالعامية والصحيح هو البرتقال (بالقاف) لأن أبناء الخليج وبعض المناطق الأخرى فى العالم العربى يخلطون بين الغين والقاف ويستخدمونهما على نحو تبادلى أى تحل احداهما محل الأخرى سهم يقولون البرتغال (بالغين) ويقصدون الفاكهة المعروفة ، والبرتقال (بالقاف) ويقصدون البرتغال الدولة المعروفة ـ لكن هذا الابدال اللغوى بين الغين والقاف بدأ يختفى مع انتشار التعليم ٠

- لابد أن هناك خلطا حدث بين اسم القائد البرتغالى (المفترض أنه فاسكو داجاما) واسم الميناء الذى التقى فيه ابن ماجد مع داجاما وهو (مالندى) أو (ملندى) على الساحل الشرقى لأفريقيا فاسم (الى ملندى) ليس اسما ذا طابع برتغالى ، لذلك نعتقد أن هناك خلطا حدث بين اسم القبطان البرتغالى والميناء الأفريقى ٠

- المقصود بزقاق سبتة المشار اليه مضيق جبل طارق ، وان كان المعروف أن سفن داجاما خرجت من البرتغال ٠
- يلجون فى الظلمات ـ المقصود المحيط الأطلسى ٠
- المقصود بالغراب نوع من السفن والجمع أغربة ٠
- لا نعرف المقصود بقوله أصل بحر النيل ٠

- أحمد بن ماجد المشار له فى النص هو الربان النجدى المعروف بكتبه فى وصف البحار ٠ وقد ولد فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى فى جلفار على الساحل العربى لخليج عمان ٠ ومن كتبه كتاب «الفوائد فى أصول علوم البحر والقواعد» وله عدة أراجيز (جمع أرجوزة) فى علوم البحار ٠
- عن ابن ماجد انظر : أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٠ الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ١٧ وكراتشوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين هاشم ج ٢ ، ص ٥٧٣ ٠

(١٤) انظر نص ترجمة الرحلة ص ٤٤ ٠

(١٥) ص ٤٢ ، ٤٤ من هذه الترجمة ٠

(١٦) ص ٤٧ من هذه الترجمة ٠

(١٧) ص ٤٧ من هذه الترجمة ٠

(١٨) ص ٤٨ من هذه الترجمة ٠

(١٩) يرى احد الباحثين (محمد محمود محمدين استاذ الجغرافيا المساعد بجامعة الملك سعود) ان قطب الدين النهروالى آنف الذكر (حاشية ١٣) قد افترى قصة ارشاد ابن ماجد لفاسكو دى جاما لأنه ـ أى النهروالى ـ من نهروالة وهى مدينة تقع الى الغرب من كجرات فى الهند) وأنه أراد أن يبعد بلاده عن عار ارشاد ملاح منها هو المعلم كان أو كاناكا لفاسكو داجاما ، ويسوق الباحث أدلة أخرى منها أن ابن ماجد لا يمكن أن يشرب الخمر ، وأن البرتغاليين لم يشيروا لملاح مسلم أرشدهم ٠٠٠ الخ والواقع أن قراءة النص المترجم لرحلة داجاما تؤكد استعانة بأكثر من ملاح مسلم بالاقناع أو بالخديعة ٠ فقد قدم داجاما لمسافة محدودة فى المحيط الأطلسى ليقدم له خبراته فى هذا يسقط هذا الدفاع الذى لا مبرر له ٠

انظر البحث المذكور : مجلة كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود المجلد ١٩٧٩/٦ صص ٥٥ـ٦٧ ٠

(٢٠) انظر ترجمة الرحالة ص ٩٤ ٠

(٢١) انظر ص ٥٩ من هذه الترجمة ٠

(٢٢) انظر ص ٦٩ من هذه الترجمة ٠

(٢٣) انظر ص ٦٥ و ٦٧ من هذه الترجمة ٠

(٢٤) Eric Axilon : Op. cit., pp. 1-VII.

(٢٥) عند خط عرض ٢٤ شمالا تقريبا فى مواجهة الساحل المغربى وان بعدت عنه ٠

(٢٦) terra تعنى « أرض » ٠

(٢٧) انظر الخرائط التوضيحية ، وهى اضافة من المترجم ولا وجود لها فى النص المترجم ٠

(٢٨) قام بارثولومو دياز Bartholomeu Diaz سنة ١٤٨٦ برحلة وصلت لأول مرة الى الطريق الجنوبى لأفريقيا وعبره شرقا لمسافة قصيرة ،

وهو الذى أطلق على الرأس اسم رأس الرجاء الصالح رغم أنه عبره فى جو عاصف ، ونفهم من النص الذى نترجمه أن باثولومو دياز قد صحب داجاما لمسافة محدودة فى المحيط الأطلسى ليقدم له خبراته فى هـذا المضمار ·

(٢٩) على ساحل غانا الحالية ·

(٣٠) الفرسخ يتراوح بين ٤ر٢ و ٦ر٤ ميلا ·

(٣١) الغاق ، والمفرد غاقة (بفتح الغين والقاف) طير مائى من فصيلة البجع ومن أسمائه أيضا Coal goose وكذلك Sea varen عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ·

(٣٢) زمج الماء بضم الزاى وفتح الميم وتشديدها هو جنس طير يطير أسرابا فوق البحار والشواطىء وريشه طويل وهو من جنس كفيات القدم (كفيات : بتشديد الفاء وكسرها) · عن معجم الشهابى ·

(٣٣) الأطرغلات : مفردها أطرغلة (بضم الألف وتسكين الطاء وضم الراء وفتح اللام وتشديدها) وهى على أنواع : أطرغلة الشام وقمرية مصر ، وتسمى شفتين فى العراق · وهو طائر مشهور يؤكل لحمه · عن معجم الشهابى ·

(٣٤) القبرات : والمفرد قبره بضم القاف وفتح الباء وتشديدها · جنس طير من فصيلة القبريات ورتبة الجواثم المخروطيـة المنـاقير ·

عن المعجم الشهابى ·

(٣٥) هذا دليل آخر على أن خبرات المكتشفين السـابقين كانت بين يدى داجاما ، فقد كان بيرو هذا أحد البحارة المرافقين لبارثولومو دياز فى رحلته آنفة الذكر · (انظر حاشية ٢٨) ·

(٣٦) عمود حجرى يعلوه صليب وهو شعار للسيادة البرتغالية المسيحية ·

(٣٧) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(٣٨) حوالى ثلاثة أرباع البابينت Pint وهو حوالى ثمن جالون أى حوالى ٣٢/٣ من الجالون · (عن معجم المورد) ·

(٣٩) المحيط الهندى والهند ويلاحظ أنه لم يذكر اسم الهند مرة واحدة مما يدل أن هدف الرحلة كان سريا · راجع مقدمة المترجم ·

(٤٠) هو مرض الاسقربوط غالبا ·

(٤١) ما بين القوسين تعليق اريك اكسيلون ·

(٤٢) ما بين القوسين تعليق اريك اكسيلون ·

(٤٣) الربعية أو ذات الربع آلة لقياس الارتفاع الزاوى · ربع دائرة: ٩٠ درجة ، $\frac{٣٦٠}{٤}$ = ٩٠ ، أما الأبر الجنوية Genoese Needle فالمقصود بها هو البوصلات ·

(٤٤) راجع مقدمة المترجم ·

(٤٥) فى موزمبيق الحالية ، ورغبة فى اختصار التعليقات نحيل القارىء للخرائط المنشورة فى هذا الكتاب ·

(٤٦) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية أن indian fig تعنى الصبار الهندى المعروف أو صبار القرمز (بضم القاف) والمصطلح العلمى الدال عليه هو Opuntia وهو جنس نباتات من الفصيلة اللحمية ، والمقصود فى المتن هو تين شبيه بالتين الشوكى فى مصر Opuntia Vulgaris ويسمى أيضا تين البربر وتين الهند ، ومن الواضح أنه فى هذه المنطقة كبير الحجم ·

(٤٧) Cocos يقصد : النارجيل : وأشهرها نارجيل جوز الهند · عن معجم الشهابى ·

(٤٨) عن معجم الشهابى أن pulses تطلق على اللوبيا والبسلة والفول والحمص والفاصوليا ·

(٤٩) يقال ان العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان هذه الأنحاء ثم حرفت لتصبح الكافير Cafres ، وهو أمر غير مستبعد فنحن نلمح كثيرا من الألفاظ ذوات الطابع العربى ، مثل Sena (وقد تكون صنعاء الجديدة و Musimus وتعنى المواسم (جمع موسم) وغيرها ·

(٥٠) رماح نحيلة ·

(٥١) الزمبيزى رابع انهار أفريقيا طولا ، وقد ارتبط كشفه بالرحالة الشهير دافيد لفنجستون الذى اكتشف بحيرة نجامى Nagami فى جنوب غرب الزمبيزى ووصل الى أحد فروع النهر سنة ١٨٥١ وتتبع النهر حتى مصبه واكتشف المساقط التى تعترض مجرى النهر والتى سميت شلالات

فكتوريا التى تقع على بعد ٧٥٠ ميلا تقريبا من منابع النهر ، وفى ١٨٥٦ وصل لنقطة التقاء الزمبيزى مع نهر لوانجا Loangwa وحاول لفنجستون تتبع النهر من مصبه الى منبعه ولكنه لم يصل الى أبعد من تيتى Tete التى أشار اليها القس دوز سانتوس فاتجه الى شيرى Shire أحد فروع الزمبيزى وصعد فى مجراه حتى بحيرة نياسا ، وقام بجولات أخرى فى بحيرة تنجانيقا ونهر الكونغو ٠

شوقى الجمل : مرجع سابق صص ٩٧ ـ ١٠٠ ٠

(٥٢) مانامو‌تابا هى زمبابوى الحالية ٠

(٥٣) قيام علماء الدين بمتابعة الدراسات الأنثروبولوجية يفيد كثيرا فى فهم بعض النصوص الدينية ، فقد عرفت معظم الحضارات البدائية ضرورة تقديم (هدية) للزعيم قبل الحديث اليه ، ومن المعروف أن جانبا من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام قد شهد ذلك ثم نسخ هذا أى ألغى ، فكأن الاسلام هنا نسخ تراثا وثنيا من الحضارات القديمة ـ (المترجم)

اقـرأ فى هـذه السلسلة

العنوان	المؤلف
أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	زايمونت وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتردبل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليـام ماكدرنالد
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	بول لويس
المسرح المصرى المعـاصر	د · عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلو
سـتندال	فيكتور برومبير

العنوان	المؤلف
رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للانسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د · رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين

نظـريات الفيـلم الكبـرى	تأليف : ج . دادلى آندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د . جوهان دورنشنر
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د . السـيد عليـوة
الميكروكمبيـــوتر	د . مصطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـــبرى الفضـــل
الفكر الأوربى الحديث جـ ٢	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييـــل بايـــر
اعلام الفلسفة السـياسيه المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة السـيناريو للسينما	دوايت سـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلســكى ف . س
أجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر زداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س . م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د. عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمدارس	رونالد د . سمبسـون ونورمان د. اندرسون
الشـــارع المصرى والفـكر	د. أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسـيط الكيميـــاء	فريد . س . هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جون بوركهـارت
التـــذوق السـينمائى	آلان كاسبر
التخطيط السـياحى	سامى عبد المعطى
البـــذور الكونيـة	فريد هــــويل
دراما الشاشة (٢ جـ)	شندرا وبكراماسيخ
الهيـروويين والايـدز	روى روبرتســون
صــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	وليام بينر
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر بورر وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا الفن التشكيلى	د . صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديدة
حوار حول النظامين الرئيسيين	
الكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس ، آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلي

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد / مونى براح
دليل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (ثلاثة أجزاء)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
قيام الدولة العثمانيـة	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزئان)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
الحياة الكريمة	بيرتون بورتر
السينما الخيالية	بيتر نيكو للنر
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى ألف عام	بيارد دوج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الأداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل

الكاتب الحديث	ج٠س٠فريزر
كتب غيرت الفكر الانساني (٣ جـ)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لورتيو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د٠ أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / محمد جابر الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ٠ج٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون ٣ جـ	ريتشارد فـ٠ بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدم متز
الطفل	أرنلد جزل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/١١٥٢٠

ISBN — 977 — 01 — 4228 — X





رغم كثرة ما كتب عن رحلة فاسكو داجاما وأهميتها فى تاريخ منطقتنا العربية وآثارها الخطيرة. لكن نص هذه الرحلة الأصلى لم يترجم حتى اليوم إلى لغتنا العربية وهذه هى المحاولة الأولى لتقديم هذا النص الهام لرحلة فاسكو داجاما للهند مروراً بسواحل أفريقيا الغربية فرأس الرجاء الصالح فسواحل أفريقيا الشرقية حتى مالندى. كما يضم هذا الكتاب جانباً من نص رحلة القس الدومنيكانى جاو دوز سانتوس الذى وصل من لشبونة إلى موزمبيق. ويعد نص رحلة دوز سانتوس بالإضافة لنص يوميات رحلة داجاما هما أهم نصين متاحين عن الجهود الكشفية البرتغالية فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر

٢٢٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب